أبواب لا تغلق

رانية فؤاد مرجية

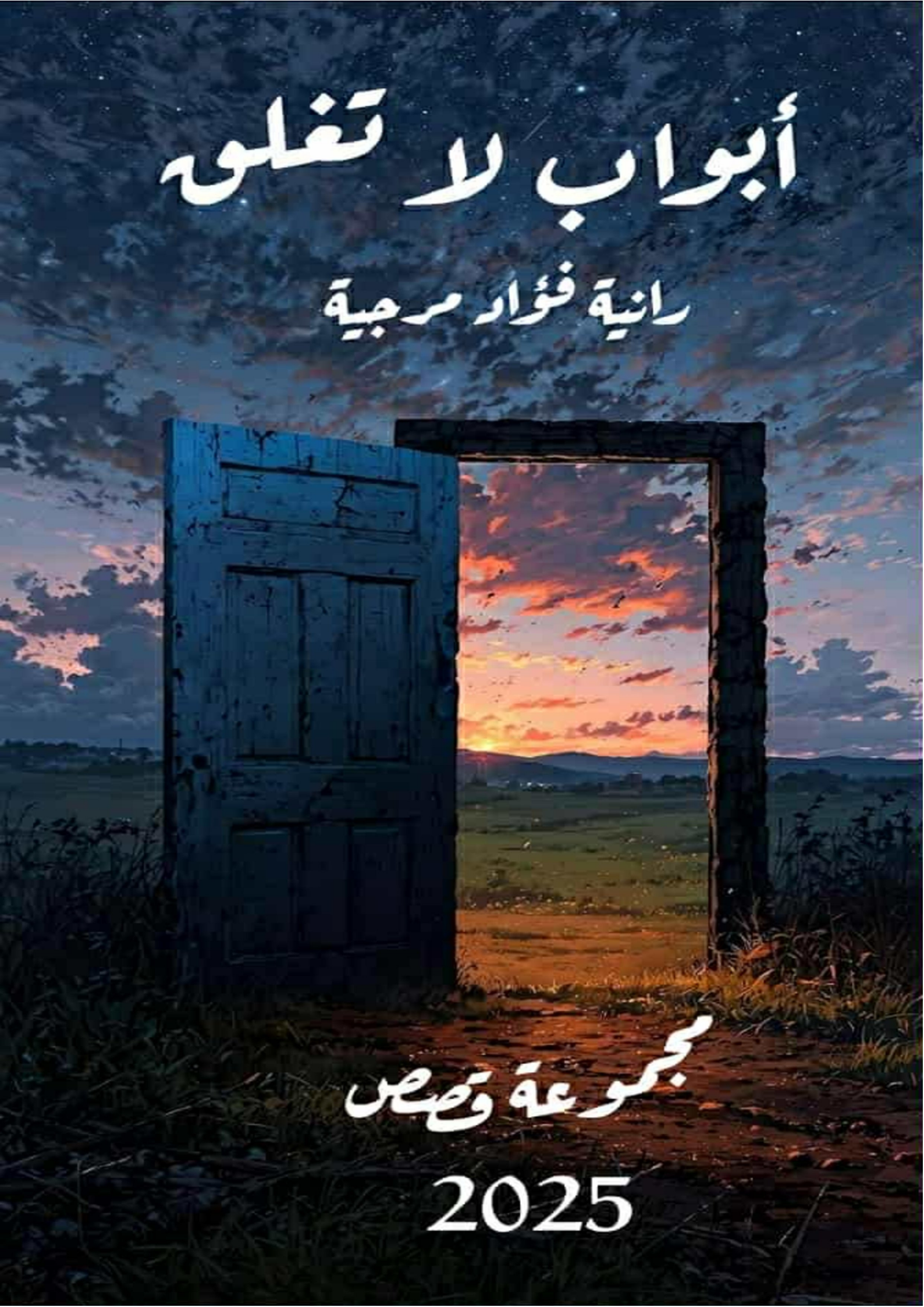

مجموعة قصص

2025

مجموعة قصص

أبواب لا تُغلق،

رانية مرجية

2025

✦ الإهداء

إلى الزيتونة التي لم تنم منذ النكبة،
إلى الأرواح التي رحلت وبقيت أصواتها تتردّد في ذاكرتنا،
إلى كل من ما زال يبحث عن بابٍ يفتح على الحرية،
إلى فلسطين التي تسكننا ولو غابت عن الخرائط...
أهدي هذه الحكايات،
لعلّها تكون قناديل صغيرة في ليلٍ طويل.

✦ المقدمة

في هذه المجموعة، أبواب لا تُغلق، حاولت أن أكتب الوجع بعيون مختلفة:
عيون امرأة عادت من الموت لتقول إن الحرب تقتل الذاكرة لا الأجساد،
وعيون زيتونة صمدت في وجه ألف قمر صناعي،
وعيون صديق ضاع اسمه في زحام مدينة، فلم يجد سوى مرآة تكشف ما خبّأه قلبه.

هذه النصوص ليست مجرّد قصص، بل شظايا من ذاكرة شخصية وجمعية، محمولة على أجنحة الحنين والاغتراب. إنها محاولة لتذكير أنفسنا أن الأوطان لا تموت ما دمنا نحملها في وجداننا، وأن الضياع ليس نهاية بل بداية بحث جديد.

لقد سمّيتها أبواب لا تُغلق لأن كل نص فيها يشبه بابًا يفتح على وجع أو أمل أو سؤال. قد ندخل منها إلى ظلامٍ كثيف، أو إلى نورٍ مفاجئ، لكن الأبواب تبقى مفتوحة دومًا أمام من يجرؤ على البحث عن الحقيقة.

فلسطين سنة 3000 – عينا الزيتونة لا تنام

(الزيتونة في قلبي... وما تبقّى من القلب ظلّ ينتظر)

في سنة 3000،

لم يبقَ شيء من ملامح العالم الذي عرفناه.

انتحرت الفصول

وتحجّر الهواء،

وصار القمر مجرّد قمر صناعي يدور حول وطن ضائع.

في سنة 3000،

لم تكن فلسطين موجودة على الخرائط

لكنها كانت تحيا في داخلي

كأنها وترٌ في عروقي...

أو رعشةٌ في صدر أمي التي ماتت وهي تُرضع حنينها لي.

اسمي ليان مرجية،

أنا ابنة الجيل الخامس للمنفيين في المريخ.

تعلّمت "السلام العالمي" في مدارس العولمة الروحية،

لكنني لم أتعلم كيف أُسكت صوت جدتي

وهي تبكي كلما شاهدت قبة الصخرة مرسومة على جدار المطبخ.

جدتي... كانت تحفظ أسماء القرى كما تحفظ أسماء الملائكة:

دير ياسين، اللد، الطنطوره، قاقون، الشجرة، إجزم...

وحين كانت تموت كل ليلة،

كانت تنهض في الفجر فقط لتقول لي:

"روحي يا ليان... الزيتونة الأخيرة عم تبكي... اسمعيها..."

فهربتُ من المستقبل،

وسافرتُ في كبسولةٍ قديمةٍ تشبه تابوت النبي يوسف

تحملني إلى الأرض التي تشبه قصائد فدوى طوقان،

ودموع محمود درويش،

وصرخات الأطفال الذين لم يكبروا.

هبطتُ على أطلال يافا.

لم تكن مدينة، بل نشيدًا مكسورًا.

لم أجد بشرًا،

وجدتُ زيتونةً واحدة،

واقفة كأنها الله

وحيدة كأنها المسيح

حنونة كأمي

عنيدة كجدي.

جلستُ تحتها،

ضممت جذعها كأنني أضم فلسطين كلها.

فهمست لي الزيتونة:

"وين تأخرتي يا بنتي؟

أنا ما نمتش من النكبة...

كل فجر بقول يمكن ترجعو..."

فبكيت،

لا لأنني وصلت،

بل لأنني فهمت أن الأرض لا تُحرَّر بالسيوف ولا بالكلام...

بل بامرأةٍ تعود من المريخ

لتحضن زيتونةً وتبكي معها.

ومن يومها،

بدأت فلسطين تنبت من جديد.

لم تحتاج إلى قرار أممي،

ولا جيشٍ،

ولا قمر صناعي.

احتاجت فقط

لقلبٍ يتذكّر...

وقصيدةٍ لا تموت.

(انتهت... أو ربما بدأت الآن فقط)

العائدة من الموت

حين توقّف قلبها لثلاث دقائق، لم ترَ الجحيم ولا الجنة.

رأت فقط مرآة ضخمة معلّقة في فراغٍ أسود، تعكس وجوهًا أحبّتها وخذلتها، ووجوهًا أخرى غابت قبل أن تكتمل الحكاية.

سمعت همسًا:

"عودي... فما زالت الأرض تنزف، وما زال قلبك ناقص الحكاية."

استيقظت على صراخ الأطباء، على صفير الأجهزة، وعلى دموع ابنتها الوحيدة.

قالوا إنها عادت بمعجزة.

لكنها كانت تعرف أنها عادت برسالة.

خرجت من المستشفى إلى مدينة لم تعد هي ذاتها.

الشوارع التي كانت تضحك في الأعياد تحوّلت إلى مقابر مفتوحة.

الأبنية تنهار بلا وداع، والهواء يختنق برائحة البارود والدم.

رأت شابًا يبحث عن ذراع أبيه تحت الركام، وامرأةً تركض تحمل طفلها الميت كأنه لا يزال حيًّا.

وفي عيني كل ناجٍ، كانت ترى موتًا آخر يمشي ببطء.

صارت تمشي وسط الخراب كأنها لا تنتمي إليه.

تمد يدها لمجهول، وتوزّع ابتسامة على عابر جريح.

كانت تعرف أن الموت لا يقتل مرة واحدة، بل يقتلنا كل يوم حين نفقد إنسانيتنا.

وذات مساء، جلست على بقايا جدار بيتها الذي قصفته الحرب.

أخرجت دفتراً قديماً، وكتبت:

"أنا العائدة من الموت، جئت لأقول لكم: الحرب لا تقتل الأجساد فقط، بل تذبح الذاكرة، تمحو العناق، وتتركنا نرتجف في فراغ بلا معنى."

لكن المفاجأة جاءت حين التقت به...

رجل كان حبها الأول، غاب منذ سنوات في حربٍ سابقة.

اعتقدت أنه مات، لكنه عاد أمامها بوجه متعب وجسد نصف حيّ.

ركضت نحوه، بكت، لمست يده المرتعشة، لكنه نظر إليها ببرود وسأل:

– "من أنتِ؟"

في تلك اللحظة، فهمت أن الموت لا يسكن القبور فقط، بل يسكن النسيان.

أن أقسى فراق ليس أن يغيب الحبيب تحت التراب، بل أن يعود حيًّا بلا ذاكرة، بلا أثر لما كان.

ابتسمت بمرارة، وأغلقت دفترها، وكتبت آخر جملة:

"الموت لم ينتصر عليّ، لكن النسيان انتصر علينا جميعًا."

ثم اختفت في زحام المدينة، وصارت حكايتها تتردّد على ألسنة الناس:

امرأة عبرت الموت، عادت تحمل رسالة، ثم ذابت في الهواء...

وصاروا ينادونها:

العائدة من الموت.

رهبان ولكن حين تتحوّل القداسة إلى لعنة

في أعالي الجبال، حيث يختلط الضباب بالسماء وتضيع الأصوات في عمق الصمت، عاش رهبانٌ جعلوا من حياتهم صلاةً متواصلة، ونسكًا يوحي بالقداسة. لم يكن الناس يعرفون عنهم سوى ما يتناقله الخيال: أيادٍ تشفي، كلمات تبارك، وأعشابٌ تُباع سرًا لتُطفئ أوجاعًا استعصت على الطب.

القرية القريبة كانت تتعامل معهم بحذرٍ مبطنٍ بالخوف، كأنهم حُماة أسرار لا يحق للناس العاديين الاقتراب منها. كانوا يخرجون مع الفجر ليقطفوا نباتات نادرة، ويعودون قبل أن تشرق الشمس كاملة. لم يبتسموا يومًا، ولم يذرفوا دمعةً علنًا، وكأنهم تماثيل مقدسة فوق الأرض.

لكن الحقيقة لم تكن كما تخيّلها أحد.

شابٌّ فضولي، ضاق صدره من الحكايات المبهمة، قرر أن يخترق جدار الصمت. تسلّل ليلًا إلى الدير، وتوارى خلف جدرانه العالية، مترقبًا ما سيفعله الرهبان بعد أن تُطفأ المصابيح.

وهناك، في قلب الليل، انكشفت أمامه مشاهد لا تليق بالملائكة ولا حتى بالشياطين. مائدة خشبية عظيمة، فوقها جماجم صغيرة تلمع في ضوء الشموع، جلود يابسة وأعشاب غُمسَت بدم أسود كثيف. رهبانٌ بأثوابهم السوداء ينشدون تراتيل غامضة، يشربون من كؤوس ملوثة بالدماء، يضحكون بلا صوت وكأن أرواحًا أخرى تسكن أجسادهم.

ارتجف قلب الشاب، كاد يصرخ، لكن همسًا تسلل إلى أذنه:

– "لم يكن عليك أن ترى هذا."

التفت مذعورًا، فإذا بالراهب الأكبر يحدّق فيه بابتسامة باردة، عيناه تلمعان كالنار في جوف الكهف. حاول أن يهرب، لكن أجراس الدير دقت من تلقاء نفسها، والرهبان أحاطوا به كأطيافٍ لا تُقاوم.

وفي الصباح... أعلنت القرية أن الدير استقبل راهبًا جديدًا.

كان هو الشاب نفسه، بوجهه المألوف، لكن بعينين لا تعرفان الرحمة.

الخاتمة النقدية

هذه القصة ليست عن الرهبنة بحد ذاتها، ولا عن الدين بمعناه الروحي النقي، بل عن الوجه الآخر للسلطة حين تخلع عنها إنسانيتها وتختبئ خلف قناع القداسة. إنّها صرخة رمزية في وجه كل منظومة تستغل الخوف والإيمان لتُخضع الناس، وتحوّل الطهر إلى لعنة، والبراءة إلى قيد جديد.

فالقداسة الحقيقية لا تكمن في الجدران الحجرية، ولا في طقوسٍ معزولة عن البشر، بل في الإنسان نفسه حين يختار الحقّ على الباطل، والنور على الظلمة، والرحمة على الجبروت.

المنافقون

المشهد الأول: قدوم المتلونين

في وادٍ فسيحٍ بين جبال شاهقة، قامت مدينة تُدعى "النور". كان أهلها يعيشون بسلام، يجتمعون في الساحات عند الغروب ليتبادلوا الخبز والحكايات، وكانت كلمة الواحد منهم بمثابة عهدٍ لا ينكسر.

لكن ذات يوم، دخل على المدينة قومٌ جدد. لم يحملوا سيوفًا ولا أسلحة، بل جاءوا بوجوهٍ بشوشة وكلماتٍ ملساء. قالوا إنهم أحباب، وإنهم يريدون الخير للجميع. رحّب بهم أهل المدينة ببساطة قلوبهم، فلم يعرفوا أن هؤلاء ليسوا أصدقاء ولا أعداء... بل منافقون.

المشهد الثاني: لعبة الأقنعة

كان المنافقون يشبهون الماء، يتخذون شكل الإناء الذي يوضعون فيه. أمام القويّ تذلّلوا، وأمام الضعيف تودّدوا. لم يكن لهم لون ثابت ولا رأي راسخ، بل كانوا يغيّرون مواقفهم كما يغيّر الليل ثوبه عند الفجر.

في مجالس الحكم، مدحوا الحاكم حتى ظنّ نفسه عادلًا. وفي مجالس العامة، انتقدوا الظلم حتى حسبهم الناس أنبياء. وإذا ما اجتمع الحاكم والعامة، صمتوا صمتًا يُشبه الحكمة، لكنه لم يكن سوى خوفٍ يُخفي خيانة.

لم يضرب المنافقون حجرًا واحدًا في أسوار المدينة، لكنهم هدموا شيئًا أعمق: الثقة. زرعوا بين الإخوة الشكوك، وبثّوا بين الجيران الغيرة، حتى صارت المدينة التي كانت موحّدة كالجسد، متفرقة كالأشلاء.

المشهد الثالث: العاصفة الكبرى

وفي ليلةٍ داكنة، هبّت على المدينة عاصفة لم يشهد مثلها أحد. الريح اقتلعت الأبواب، والمطر أغرق الشوارع، والجميع هرع إلى الساحة الكبرى طلبًا للنجاة. هناك، كان لا بد أن يظهر كل امرئ على حقيقته.

الصادقون وقفوا متكاتفين، يحملون بعضهم بعضًا، يقاتلون العاصفة بأذرعٍ مفتوحة وقلوبٍ لا تخاف. أما المنافقون، فقد ارتبكوا، تبدلت وجوههم كما تتبدل المرايا في الظلام. كل واحدٍ منهم حاول أن يُرضي الجميع فلم يُرضِ أحدًا. سقطت الأقنعة، فإذا وجوه خاوية، وعيون زائغة، وكلمات كالرماد في مهب الريح.

عندها أدرك أهل المدينة أن الخطر لم يكن في العاصفة، بل في المنافقين الذين أضعفوا الروح قبل أن يضعف الجسد. فالعاصفة تمرّ، لكن أثر النفاق يبقى إن لم يُطرد من الجذور.

الخاتمة: الحكمة الباقية

منذ تلك الليلة، علّم أهل "النور" أبناءهم أن أشد الأعداء ليس من يأتي بوجهٍ مكشوف، بل من يلبس ألف قناع. وأن النفاق ليس مجرد كذب، بل خيانة بطيئة للروح، وهدمٌ صامت لأساس المجتمع.

فالحياة تحت سيفٍ عادل أهون من الحياة تحت ابتسامةٍ كاذبة. والمدينة التي تحرسها قلوب صادقة، لا تهزمها عواصف الأرض ولا جيوش السماء.

المرآة الأخيرة

في مدينةٍ مغمورة بالضجيج، كان الناس يركضون كأنهم يهربون من أنفسهم. في وسطها، عاشت امرأة لم يكن لها بيتٌ ثابت ولا اسم معروف. أطلقوا عليها ألقابًا كثيرة: "الغريبة"، "المجنونة"، و"الساحرة". لكنها لم تجادل يومًا، بل كانت تحمل على ظهرها مرآة مغطاة بقماش أبيض.

لم تكن تبيعها، ولم تسمح لأحد بلمسها. كل ما فعلته هو أن تجلس في الساحات، وحين يقترب منها شخص يائس أو غاضب، ترفع الغطاء ببطء وتضع المرآة أمامه.

ولم يكن أحد يرى صورته كما اعتاد، بل كان يرى ما يخفيه قلبه: جرحه القديم، حلمه المجهض، أو ذنبه الذي لم يغفره بعد.

في البداية، ارتعب الناس. قالوا:

— "إنها ساحرة تكشف الأسرار، لا بد من نفيها!"

لكن الغريبة كانت تبتسم وتهمس:

"أنا لا أكشف شيئًا، المرآة وحدها تنطق. أنتم أنكرتم أنفسكم، وأنا فقط أعيدكم إليها."

ذات ليلة، اجتمع زعماء المدينة وقرروا كسر المرآة. حين اقتربوا منها، وقفت المرأة وقالت:

— "هذه ليست مرآتي. إنها آخر مرآة خلقها الله للإنسان، إن حطمتوها فلن يبقى لكم سوى الركض وراء صوركم المزيفة."

رفعوا العصيّ وحطّموا المرآة. لكنها لم تنكسر. بل تفجرت نورًا ملأ الساحة. وحين انقشع الضوء، لم يجدوا المرأة. بقي القماش الأبيض على الأرض، وبقيت المدينة كلها ترى نفسها مكشوفة، بلا أقنعة.

منذ ذلك الحين، صارت تُروى الحكاية عن "الساحرة التي حملت المرآة الأخيرة"، لا كخرافة بل كوصية:

"أن تعرف نفسك، هو أعظم أنواع السحر. وأن ترى الآخر بصدق، هو أقدس المرايا.

الدخلاء

المشهد الأول: المجيء

كانت القرية، المحاطة بجبالٍ صامتة، أشبه بجزيرةٍ صغيرة خارج الزمن. الناس يعرفون بعضهم بالاسم، والأبواب مشرّعة، والأغاني القديمة تُغنّى في الساحات كل مساء. كان النبع العتيق في وسط القرية يوزّع ماءه بعدلٍ بين الجميع، وكأنما يبارك حياتهم البسيطة.

وفي صباحٍ غائم، ظهر غرباء على مشارف القرية. لم يأتوا بخيولٍ ولا أسلحة، بل بملابس أنيقة وابتسامات عريضة. رفعوا رايات الحرية والتقدم، وقالوا إنهم جاؤوا ليمنحوا القرية ما ينقصها: أضواء جديدة، ألعاب براقة، وطرائق عيشٍ "أحدث".

تردّد الأهالي، لكن الفضول غلبهم. قالوا: "لن نخسر شيئًا إن جرّبنا." فُتحت الأبواب، ودخل الغرباء كما يدخل النسيم من نافذةٍ نصف مفتوحة.

المشهد الثاني: السيطرة

لم يكتفِ الغرباء بالسكن في أطراف القرية، بل بدأوا يتسللون إلى قلوب الناس. بدّلوا الأغاني القديمة بأصوات صاخبة، وأقنعوا الأطفال أن اللعب الحقيقي ليس بين الحقول، بل أمام الشاشات التي أحضروها.

تدريجيًا تغيّر كل شيء:

صار السوق يعجّ بسلع لامعة نسي الناس معها خبز أمهاتهم.

صار الجلوس تحت شجرة الساحة أمرًا "بدائيًا"، لا يليق بالقرية "المتحضرة".

حتى النبع الذي طالما وزّع ماءه بسلام، هجروه من أجل قوارير بلاستيكية زُيّنت بشعارات الغرباء.

تبدّلت العيون، لم تعد نظراتها صافية. غزا القلق قلوب الناس، وصاروا يقيسون أنفسهم بما عند غيرهم، لا بما يملكون من دفءٍ ورضا.

لم يحتج الغرباء إلى سلاحٍ واحد. لقد احتلوا القرية بالوهم.

المشهد الثالث: المقاومة

في ليلةٍ قمرية، اجتمع القليلون الذين ما زالوا أوفياء لذكرياتهم حول الشجرة العتيقة. كانت أصوات الغرباء تعلو في القرية، لكنهم أشعلوا قناديل صغيرة وأخذوا يغنون أغاني أجدادهم. لم تكن أضواؤهم كثيرة، لكنها اخترقت الظلام. لم تكن أصواتهم صاخبة، لكنها صادقة، فأيقظت شيئًا كان نائمًا في أرواح الآخرين.

تساءل أحد الشيوخ:

– كيف سمحنا لهم أن يسكنوا بيوتنا؟

أجاب آخر:

– لم يسكنوا البيوت... لقد سكنوا فراغاتنا.

ومع كل قنديل يُضاء، ومع كل كلمة تُستعاد من الأغاني القديمة، بدأ الغرباء يخسرون نفوذهم. فهم الناس أن ما أضاعوه لم يكن خبزًا ولا أرضًا، بل ذواتهم. وعندما يستعيد الإنسان نفسه، لا يبقى للدخلاء مكان.

وهكذا، لم ترحل آثار الغرباء تمامًا، لكن القرية عادت تتنفس من جديد. تعلم أهلها أن الحصون لا تُبنى بالحجارة، بل بالوعي، وأن الوطن الحقيقي لا تسكنه الدخلاء إلا إذا هجره أصحابه.

الخاتمة

الدخلاء ليسوا دائمًا غرباء يحملون وجوهًا جديدة، بل قد يكونون أفكارًا تتسلل إلينا، أو خوفًا يسرق أحلامنا، أو زيفًا نتبناه بملء إرادتنا. والخطر الحقيقي ليس في وجودهم، بل في غيابنا عن أنفسنا.

فكل قلبٍ يعرف قيمته، وكل عقلٍ يتذكر جذوره، هو حصنٌ عصيّ على الغزو.

والوطن الأجمل... يبدأ من الداخل.

الفخ انكسر

الفصل الأول: القفص الشفاف

كان يظن أنّه يعيش حياة عادية: عمل، نوم، طعام، علاقات عابرة. لكن شيئًا في داخله كان يقول له إنّه سجين. ليس هناك أبواب حديدية ولا قيود مرئية، ومع ذلك كان يشعر أنّ أنفاسه محدودة، وأن الطرق كلها تؤدي إلى ذات النقطة.

كان الناس من حوله يضحكون، يتحدثون عن أحلامهم، يسافرون، يغامرون. أمّا هو فكان يبتسم ابتسامة باهتة، يخفي بها سؤالاً قاتلاً: لماذا أشعر أنني محاصر؟

الفصل الثاني: الأصوات

في الليل، حين يضع رأسه على الوسادة، تبدأ الأصوات. ليست أصواتًا خارجية، بل همسات داخلية:

"ابقَ هنا، لا تحاول... أي خطوة للخارج ستكلفك حياتك."

"الناس لا يرحمون، والطرق مليئة بالفخاخ."

"الحذر أمان، والأمان بقاء."

كان يصدقها. يظنها حكمةً ورثها من تجارب لم يعشها أصلًا. ومع مرور السنوات، صار يردد هذه الجمل للآخرين، حتى بدا وكأنه السجّان لا السجين.

الفصل الثالث: الحلم

ذات ليلة، رأى حلمًا غريبًا. بابٌ من نور وسط العتمة، خلفه أصوات ضحكاتٍ وحريّة. اقترب، مدّ يده نحو المقبض، لكن فجأة انبعث صوتٌ من داخله، صارخًا:

"إياك! هنا الأمان، هناك الموت."

ارتد مذعورًا، واستيقظ على صدى قلبه يقرع كطبول حرب. عندها أدرك أن السجن ليس حلمًا، بل حياة كاملة بُنيت داخل رأسه.

الفصل الرابع: الشرخ

في اليوم التالي، كان يسير في الشارع حين لمح طفلًا يركض وراء طائرة ورقية. سقط الطفل على الأرض، ثم نهض، يركض من جديد بلا دموع.

توقف الرجل مذهولًا. كأن الحياة كلها لخصتها تلك اللحظة: السقوط ليس هزيمة، بل بداية المغامرة.

شعر أن شيئًا انكسر في داخله، كأن الجدار الذي بناه عقله بدأ يتشقق.

الفصل الخامس: الانكسار العظيم

في المساء، جلس وحيدًا، يستمع إلى صمت الغرفة. فجأة، دوى داخله صوت تحطّم، لا يشبه أي شيء سمعه من قبل. كان كأن قضبانًا من زجاجٍ سقطت على الأرض وتبعثرت. شعر بريحٍ تدخل صدره، بحريةٍ لم يعرفها من قبل.

نهض وركض. لم يعرف إلى أين، ولم يسأل. المهم أنّه ركض. وكلما ركض أكثر، اتسع صدره أكثر.

الفصل السادس: المفاجأة

بعد أن تعب، التفت حوله ليرى ماذا تحطّم. لم يجد شيئًا. لا جدران، لا قضبان، لا فخاخ.

حينها اكتشف الحقيقة الصادمة: لم يكن هناك فخ خارجي أبدًا. لقد عاش حياته كلها في وهمٍ صنعه عقله. الفخ لم ينكسر، بل هو انكسر عن الفخ.

جلس على الأرض يضحك ويبكي في آن واحد:

"كنت أنا السجن... وكنت أنا السجّان... والآن صرت أنا الحرية.

ذاكرة تحترق... وحب بلا ملامح

لم يكن الفراق بينهما لحظة، بل زلزالًا ممتدًا في الزمن.

يوم غادرها على رصيف المحطة، كان القطار أهون من أن يحمل وجعهما، ومع ذلك ترك لها صمته كوصيّة.

منذ تلك اللحظة، كل صفير قطار صار صرخة في قلبها، وكل نافذة تفتحها الريح كانت تذكّرها بأن العالم لا يتوقف ليجبر قلوب العاشقين.

مرت السنوات كأنها جثث زمنية، باردة بلا حياة.

كانت تكتب له رسائل لا تُرسل، وتضعها تحت وسادتها.

تقرأ صوته بين سطورها، وتعيد صياغة تفاصيله حتى لا يذوب من ذاكرتها.

لكن الحرب جاءت كقاضٍ لا يعرف الرحمة.

مدينتهم التي كانت تكتب فيها على الجدران عبارات حب، صارت الآن جدرانها تكتب بدم الأبرياء.

القذائف كانت تعيد صياغة التاريخ بلغة النار.

وفي كل سقوط لصاروخ، كانت تشعر أن قلبها ينقسم قسمين: نصف يعيش على الحنين، ونصف يموت بالذعر.

ذات مساء دموي، خرجت تبحث عن خبز وعن بعض ماء.

على الرصيف ذاته الذي تركها فيه، وجدت جثّتًا تتكدّس.

عينها وقعت على وجه مألوف.

اقتربت، قلبها كان يسبقها بخطوات، يدها ارتجفت وهي تزيح الغبار عن ملامحه.

إنه هو... وجهه ذاته، كأنه لم يغب عنها لحظة.

صرخت باسمه. تحرّك. فتح عينيه، لكنه كان غريبًا.

نظر إليها وكأنها دخيلة على مشهده الأخير.

قال بصوت مشروخ:

– "من أنتِ؟"

سقطت كل سنوات الانتظار في تلك اللحظة كما يسقط تمثال من حجر.

أدركت أن الفراق الأكبر ليس الموت،

ولا أن تبتلعك حرب،

بل أن تعيش بجسدك ويموت داخلك كل ما يربطك بمن تحب.

ابتسمت بمرارة، مسحت عن جبينه الدم، وهمست:

– "أنا... التي كنتُ أحبك يومًا، وأنتَ لم تعد."

ثم مشت بين الركام، بينما خلفها الحرب كانت تلتهم أصوات الناجين،

وهي تفكّر أن أعظم مأساة للإنسان ليست أن يفقد الآخرين،

بل أن يفقد الآخرون القدرة على تذكّره.

ضياع

كان يمشي كأنه يجرُّ ظلًّا أثقل من جسده. المدينةُ تعصف بأصواتها: صفيرُ مكيفات، صفاراتُ إسعاف، قطاراتٌ تُصفِّد الحديد بالحديد. كلُّ شيء يتحرّك إلا قلبه؛ واقفٌ عند إشارة لا تغيّر لونها. واجهاتُ المحالّ تُبدِّل العروض في كل مساء، والوجوه تُبدِّل الأقنعة أسرع مما يُبدِّل الناسُ أحذيتَهم. كان يلتقط من هذا الكرنفال شذراتٍ مبعثرة: زاويةَ عين، سنًّا ذهبياً، كفًّا تُربّت على كتفٍ مجهول. أما اسمه، فكان أبعد من أن تطاله يداه.

مدَّ يده إلى جيبه، فوجد قصاصةً ممزّقة: «الممرّ 12 – المقعد د». لا يتذكّر قاعةً ولا رحلةً. بعض الأصوات تلاحقه كأذيال أثواب قديمة: امرأةٌ تنادي «يا...» ثم ينقطع حبلُ النداء، ضحكُ رجالٍ لا يعرف سببَه، بكاءٌ مكتومٌ ينهض من مصعدٍ حين يُفتح على طابقٍ فارغ. كان يمدّ يده إلى هذه الأصوات كأنها حبالُ نجاة، فإذا بها تنكمش كخيوط دخان.

عند بائعةِ الزعتر في الزاوية، كبّلته عينان عميقتان. قالت بصوتٍ يخرج من بئرٍ قديمة في صدرها: «تأخّرت». كاد يقول «أنا...» لكن الكلمة علقت في حلقه كسنٍّ مكسورة. عبرَ ومضى، وصدى الكلمة يطنُّ فيه: تأخّرت عن ماذا؟ عن حياةٍ أخرى؟ عن نفسه؟

كانت الساعةُ في الميدان متوقّفة على السابعة واثنتين وعشرين. والمدينةُ، على عجلتها، بدت معلّقة عند تلك الدقيقة. في مرآةِ واجهةٍ لامعة رأى وجهًا سُحبت منه الأسماء وبقيت فيه تفاصيل باردة: حاجبٌ أثقل من الآخر، ندبةٌ رفيعة تحت الذقن. قال لنفسه: «ربما كنتُ يومًا شخصًا ما»، ثم صحَّح: «ربما كنتُ يومًا أنا».

رنّ الهاتف. لم يعرف النغمة ولا الرقم. رفعَه. صوّتٌ نسائيّ مباشر، بلا مقدمات: «أخيرًا... وجدتك». انقطع الخط. أعاد الاتصال؛ واجهه الصوتُ القاسي للآلة: «الرقم غير متاح». ظلَّ السؤالُ أشرس من الإجابة: كيف يجدك أحدٌ وأنت لم تجد نفسَك بعد؟

عند نهاية الشارع، ظهرت لافتةٌ لا يذكر أنه رآها من قبل: مقهى الباب السادس. بابٌ خشبيّ داكن تتوسّطه دائرةٌ زجاجية تُريك أكثر مما تريد أن تُرى. من الداخل نورٌ أصفر لا يتباهى. وضع كفّه على الخشب. كان دافئًا كأن يدًا سبقتْه بثوانٍ. همس: «إن لم أُسمِّ نفسي الآن فلن أفعل أبدًا». قال الحرف الأول: «أ...» وانفتح الباب.

هواءٌ لا يشبه الشارع. رائحةُ بنٍّ محمّص تختلط بخشبٍ قديم وكتبٍ مهملة. كأن المكان لا يبيع القهوة فقط، بل يبيع ذاكرةً مركونة. الإضاءةُ وديعةٌ مائلة، والزمنُ يتردّد قبل أن يدخل. رجلٌ يقرأ جريدةً قديمة تتحدث عن زلزال وقع قبل عشر سنين. امرأةٌ شابّة تتأمّل فنجانًا فارغًا كأنه مرآة. نادلٌ نحيلُ الوجه، عيناه رماديتان لا تلمعان، قال بلا سؤال: «الزاوية لك». لم ينتظر اختيارَه، بل قاده بإشارةٍ ثابتة.

جلس. الطاولةُ مستديرةٌ مخدوشةٌ بأظافرَ كثيرةٍ مرّت هنا. فوقها دَفترٌ جلديّ، كأنه في انتظاره منذ دهر. فتح النادلُ دفترَ الطلبات: «ماذا تشرب؟» أجاب بلا وعي: «قهوة سوداء». ابتسم النادل: «القهوة تأتي وحدها... أما الدفتر فلك».

وحده مع الدفتر. وضع كفَّه عليه؛ حرارته غريبة، كأنّ فيه نبضًا. فتح الصفحة الأولى: كلمةٌ واحدة بحبرٍ باهت: أنا. التقط القلمَ المعدني الذي كان وجدَه عند بائع الأرصفة. أراد أن يكمل الجملة، لكن القلم لم يكتب. جافّ؟ أم أن الكلمات نفسها رفضت الخروج؟ بدا له أن الدفتر لا يريد أن يُكتب، بل يريد أن يُقرأ.

صوتٌ رقيقٌ خلفه. التفت. المرأة الشابّة اقتربت خطوةً، قالت وهي تنظر إلى الدفتر ثم إليه: «هذا ليس لك وحدك. كلُّ من جلس هنا كتب... وترك شيئًا من ضياعه». ابتسمتْ ابتسامةً حزينة وعادت إلى مكانها؛ كان فنجانُها ممتلئًا بعد أن كان قبل لحظةٍ فارغًا.

عاد النادل ووضع فنجانَه. البخارُ يتصاعد في دوائر. لمح في سطح القهوة انعكاسَ وجهٍ لا يشبهه تمامًا، يبتسم له كأنه يعرفه. قبل أن يلمس الكوب، انقلبت صفحةٌ وحدها؛ مكتوبٌ فيها بخطّ واضح: كلُّ من جلس هنا كتب اسمَه... ثم نسيه.

ارتجف. المقهى ليس استراحة؛ إنّه مصيدةُ ذاكرة. أغلق الدفتر. سمع خربشةً خفيفة تحت كفّه، ففتحه ثانيةً. صفحةٌ جديدة كُتِب عليها الآن: حين تُحاول أن تخرج، سيتأخّر الباب دقيقةً واحدة. لا تهلع. حدّق في العبارة طويلًا. رفع رأسه؛ عقربُ ساعةٍ معلّقةٍ خلف البار متوقّفٌ على السابعة واثنتين وعشرين.

دخلت المرأةُ العجوز. لم يسمع وقعَ خطوها، لكنه شمَّ رغيفَ زعترٍ خارجًا تواً من فرنٍ بعيد. جلست قُبالته دون استئذان. تفرّسَت فيه كما تُحصي الأمُّ أصابع طفلٍ يعود من اللعب. همسَت: «كنتُ أعرف أنك ستأتي إلى الباب السادس. هنا يتركون أسماءهم». سألها: «أتعرفينني؟» قالت: «أعرف ما ضيّعتَ، لا من تكون».

مدّت يدها إلى الدفتر. فتحتهُ على صفحةٍ في الوسط. كلمةٌ واحدة محفورة هذه المرّة بضغطٍ عميق: بيت. انزلقت الكلمةُ في صدره كحجرٍ يُرمى في بئر. رأى بابًا قديمًا مخلوعًا، لمسةَ يدٍ على كتفِه، ضحكةً تنكسر عند أقصى المطبخ، ظلَّ امرأةٍ تهتف باسمه الصغير الذي لم يعد يتذكّره. تراجع المشهدُ حين رفع عينيه؛ المقهى مكانه، والمرأةُ تنظر إليه والصمتُ بينهما أثقل من الكلام.

قالت وهي تنهض: «تأخّرتَ بما يكفي كي لا يعودَ شيءٌ كما كان. ومع ذلك... كلُّ مَنْ يعثر على نفسه هنا، يعثر فقط على أثَرها». ومضت كما دخلت: بلا ضجيج، تاركةً خلفها ظلَّ رائحةِ الزعتر.

أعاد القلمَ إلى الدفتر. كتب تحت «أنا»: «أبحث عنّي». لم يجفَّ الحبر. ابتسم بحذر. انفتلتْ الصفحةُ التالية وحدها: ابحثْ بيدٍ لا ترتجف. رفع يده، فوجدها ثابتة. كانت هذه أوّل معجزةٍ صغيرة يشعر بها منذ زمن. كتب: «ما اسمي؟» توقّف القلمُ لحظةً، ثم عاد يكتب وحدهُ بحروفٍ تشبه خطَّه ولا تشبهه: اسمُك ما تقدر أن تنقذه من الحريق.

أيُّ حريق؟ حاول أن يتذكّر. ومضةُ لهبٍ في بيتٍ قديم؟ حريقُ مدينةٍ أم حريقُ قلب؟ لا فرق. كلُّ حرائق الذاكرة تتّحد في لونٍ واحد.

أراد أن يخرج. نهض. تُمسك يدُه المقبض. تذكّر التحذير: دقيقةٌ واحدة. عدّها مع نبضه. كان البابُ ثقيلًا، لا يفتح. في الثانيةِ الستين استجاب. خرج إلى الشارع. المطرُ خفيف. الساعةُ في الميدان لا تزالُ على السابعة واثنتين وعشرين. استدار ليتأكّد من اللافتة؛ كانت هناك: مقهى الباب السادس، لكن الباب مغلقٌ بسلسلةٍ صدئة ولوحٍ كتب عليه: «مغلق منذ سنوات».

عاد قلبُه إلى صدره ثم سقط. التفتَ يسارًا. الزوايا نفسها، الضوء نفسه، لكن شيئًا غير مرئيّ تبدّل؛ كأن المدينة انزلقت نصفَ درجة عن محورها. عاد إلى الباب. طرق. لا شيء. وضع جبينَه على الزجاج الدائري. رأى ظلالًا في الداخل: طاولةً مستديرة، دفترًا جلديًا، فنجانًا يتصاعدُ منه بخارٌ خفيف. تبخَّر البخار فجأةً كأن شخصًا أطفأ شمعة. تراجع خطوةً، فاستقرّ ظلّه على الخشب كختمٍ أسود.

مشى بلا اتجاه. المدينةُ دائرةٌ كبيرةٌ بوسطٍ لا يُمس. كلَّما حاول أن يبتعد عاد إلى الميدان نفسه. رأى النادل يقف على الرصيف المقابل، بلا مئزرٍ هذه المرّة، يضع يديه في جيبيه وينظر إلى السماء. عبر إليه. سأله: «المقهى مغلق... لكنّني كنت داخله قبل قليل». ابتسم النادل بثقةٍ باردة: «الناسُ يدخلونه حين يقرّر البابُ أن يتذكّر». قال بلا صبر: «ومتى يتذكّر؟» هزَّ كتفيه: «حين تكتب شيئًا يستحقّ أن يُقرأ».

عاد إلى الكُرّاس في جيبه. لم يتذكّر أنه حمله معه، لكنه كان هناك. فتحه. الصفحةُ الأخيرة تلمع. مكتوبٌ فيها بخطّه: إلى مَنْ يجد هذه الأوراق: لقد ضعتُ منذ زمنٍ بعيد، وما تقرؤونه ليس كلماتي... بل كلمات رجلٍ جلس هنا بالأمس. ارتجف. «بالأمس؟» أيُّ أمس؟ ومن هو الرجل؟

صوتُ الهاتف مرةً ثانية. الرقم مجهول. «أخيرًا... وجدتك». قال بسرعةٍ كالغريق: «من أنت؟» أجاب الصوت: «التي تركتُ لك الزعترَ على الطاولة». التفتَ حوله؛ لا طاولة. «أين أنتِ؟» قالت: «في المكان الذي لا يفتحُ إلا لمن ضيّعَ اسمَه». وانقطع الخط.

رجع إلى الباب. السلسلةُ صدئةٌ كما هي، واللوحُ كما هو. لكنّ الدائرة الزجاجية صارت مرآةً تُعيدُ إليه وجهًا آخر. وضع أنفاسَه فوقها. ضبابةٌ خفيفة. كَتَبَ عليها بإصبعه: أنا هنا. مسحَ الزجاجُ العبارةَ كما تمسح الريحُ آثارَ الطيور.

في الليل، حين نامت الأرصفة، جلس تحت مظلّة موقف حافلاتٍ فارغ. فتح الدفتر. كتب صفحاتٍ طويلة عن المدينة، عن الساعة المتوقّفة، عن امرأة الزعتر، عن النادل، عن القهوة التي تعكس وجوهًا لا يعرفها. كتب حتى هدأت يده. أغلق الدفتر ووضعه تحت خدّه كوسادة. حلمَ ببيتٍ له بابٌ سليم، وأمٍّ تقول له اسمه. صحا على أوّل قطرة مطر. فتح الدفتر. كانت الصفحات بيضاء. لا أثرَ لكلماته. فقط في الطرف السفلي لسطرٍ ناءٍ كلمةٌ صغيرة: اكتبْ كأنك لا تريد أن تتذكّر.

عاد الصباحُ إلى المدينة لا مبالياً. كلُّ صباحٍ هنا يشبه اعتذارًا متأخرًا. جرَّ نفسه إلى الساحة. الساعةُ لا تزال على السابعة واثنتين وعشرين. ابتسم على يأسه. في هذه اللحظة، مرَّ طفلٌ يحمل طبشورًا أبيض. رسم دائرةً على الأرض ووقف داخلها. تذكّره من الأمس. اقترب منه. سأله: «لماذا ترسم دائرةً وتدخلها؟» قال الطفل: «كي لا يضيع اسمي». سأل: «وما اسمك؟» أجاب بثقة: «اسمي يختلف كلَّ يومٍ لكنّي لا أنساه داخل الدائرة». قال: «وماذا عن أمس؟» هزَّ كتفيه: «أمسُك أنتَ».

لم يعد يحتمل ألغازَ الأشياء. عاد إلى النادل. وجده يمسحُ طاولةً أمام بابٍ مغلق لمطعمٍ آخر. «تعال معي»، قال له النادل دون أن يلتفت. تبعهُ إلى زقاقٍ ضيقٍ تنبتُ فيه نباتاتٌ في علبِ طلاءٍ فارغة. في نهايته بابٌ خشبيّ بلا لافتة. فتحهُ النادل بمفتاحٍ صدئ. كان الداخلُ غرفةً صغيرةً بكرسيٍّ منفردٍ وطاولةٍ خالية. «اجلس»، قال. «هنا تكتب مرّةً واحدةً ما لن تُعيد كتابته. إنْ أصبتَ الفكرةَ، فتح البابُ السادس وحده. وإن أخطأتَ... بقيتَ تدور». ابتلع ريقه. «وما الفكرة؟» قال النادل: «أن تقول الحقيقة حين تكون آخرَ مَنْ يسمعها».

جلس. أمامه ورقةٌ واحدة وقلمٌ مماثلٌ لذاك المعدنيّ، محفورٌ عليه حرفٌ وحيد. وضع طرف القلم على الورقة. سمع في رأسه أصواتًا كثيرةً تتزاحم: «أنا ابنُ بيتٍ لم يبقَ منه غيرُ الباب»، «أنا اسمٌ يتيمٌ في سجلٍّ ضاع»، «أنا ظلٌّ يبحثُ عن صاحبه»، «أنا...» رفعتْ عبارةٌ واحدة رأسَها بين العبارات: أنا من كتبني الآخرون. كتبها. لم يُفكّر. ولمّا رفع القلم، شعر أن الغرفةَ تُزيحُ جدارًا غير مرئيّ. فتح النادل البابَ بلا مفتاح. قال وهو يبتسم للمرة الأولى: «الآن يمكن أن تتذكّرك».

خرج. الممرُّ يفضي، بلا التفات، إلى مقهى الباب السادس مفتوحًا وناصعَ الضوء. دخل. في الزاوية طاولته. على سطحها الدفترُ الجلديّ. فتحه. الكلمةُ الأولى كما هي: أنا. تحتها جملةٌ بخطِّه الذي كتبه قبل قليل في الغرفة: أنا من كتبني الآخرون. انفلتت ثالثةٌ مثل خيطٍ طالَ شدُّه: وأنا الآن أكتب مَنْ سيأتي.

أحسَّ أن شيئًا يتحرّر في صدره. ليس اسمًا كاملاً، ولكن حرفًا يُفتح من الداخل. كتب حرفًا واحدًا تحت «أنا». بدا واضحًا، طفلًا خرجَ لتوّه إلى الضوء. نهض. لم يطلب قهوةً، ومع ذلك وجد الفنجانَ أمامه. في سطحه انعكاسُ وجهٍ يشبهه أكثر من أيّ مرّة. رفعه. قبل أن يشرب، سمع بابَ المقهى يُفتح. دخل رجلٌ يجرُّ ظلًّا أثقل

من جسده. نظر إليه، فابتسم له بلا سبب. ذهب الرجلُ إلى الزاوية الأخرى. جلس. وضع النادلُ أمامه دفترًا شبيهًا. همسَ لنفسه: «هكذا تبدأ الحكايات التي لا تنتهي».أراد أن يجرّب الباب وهو من الداخل. نهض. عند العتبة، لمح على الجدار لوحًا صغيرًا من الخشب محفورًا عليه: الكرسيّ القريب من النافذة محجوزٌ لمن فُقدوا ولم يُعثر عليهم. التفت إلى كرسيّه. النافذةُ تُشرّعُ الضوء فوقه. ابتسم بسخريةٍ مريرة: «إذًا كنتُ أجلسُ في المكان الخطأ من العالم».

خرج إلى الشارع. الساعةُ في الساحة تتحرّك الآن إلى السابعة وثلاثٍ وعشرين. أحسَّ أن الدقيقةَ الإضافية سُلِّمَت إليه هديةً صغيرة. كان يريد أن يضحك. سمع الهاتف للمرة الثالثة. «أخيرًا... وجدتك». قال بثبات: «وأنتِ؟» أجابت: «أنا من كانت تقول لك: تأخّرت». قال: «أعرف الآن». صمتتْ، ثم قالت: «تعال إذا شئت. الباب مفتوح». «أيُّ باب؟» قالت: «بابٌ ليس من خشب. بابٌ يُفتح حين تترك صورةَ وجهك على صفحةٍ لا تريدُ أن تحتفظ بك».

عاد إلى المقهى ليشكر النادل، لكنّه لم يجد أحدًا. الطاولاتُ خاليةٌ إلا من غبارٍ رقيقٍ يلمعُ على الضوء. الكُرّاس الجلديّ ليس على الطاولة. اقترب. على الخشب، كلمةٌ محفورةٌ بعمقٍ لم يره من قبل: ضياع. وضع كفَّه فوقها. كانت باردةً فيما الهواءُ دافئ. اتّجه إلى البار. خلفه مرآةٌ طويلةٌ تعكس القاعةَ كلَّها. لم يظهر فيها انعكاس جسده.

تراجع خطوةً، فخطت المرآةُ خطوةً معه. مدَّ إصبعه إلى الزجاج. لم يلمس صلابة. لمس ماء. غاص طرفُ إصبعه ثم عاد مبتلًّا. مرَّر كفَّه بحذرٍ؛ انشقّت المرآةُ مثل سطح بحيرةٍ في ليل. رأى داخلها الطاولةَ التي كان يجلس إليها منذ لحظات، الدفترَ مفتوحًا، والقلمَ فوق الصفحة. كانت الصفحةُ التي تُرى في عمق الزجاج تحمل جملةً طازجة الحبر: إلى من يجد هذه الأوراق... لقد ضعتُ منذ زمنٍ بعيد، وما تقرؤونه ليس كلماتي، بل كلماتُ رجلٍ سيقرأها الآن. نظر حوله. لا أحد. نظر إلى المرآة. رأى النادل يدخل القاعة التي داخل الزجاج، يتقدّم إلى الطاولة، يلمس الدفتر، يقلب الصفحة. رأى نفسه – نعم، نفسَه – يقف حيث يقف الآن، ينظر كما ينظر الآن. رفع النادل رأسَه من داخل الزجاج وحدّق فيه مباشرةً. ثم كتب النادل جملةً أخرى في الصفحة: إذا قلبتَ هذه الورقة الآن... ستختفي.

لم يمدّ يده. كان يعرف أن في الاختفاء نوعًا من العدالة المتأخرة. لكنه أراد أن يجرّب الحقيقة حين يكون آخر من يسمعها. مدَّ يده. قلب الورقةُ التي في الداخل؛ ارتجَّ الهواءُ. أُطفئت المصابيحُ دفعةً واحدة. سمع في أذنه دقّةً واحدةً للساعة، ليست في الساحة هذه المرّة، بل قريبةٌ كنبضة. ثم سكون.

حين دخلت المرأةُ الشابةُ بعد دقائق، وجدت المقهى فارغًا. مسحت بيدها الغبارَ عن الطاولة القريبة من النافذة. وجدت دفترًا جلديًا. فتحته. كانت الصفحةُ الأولى تحمل كلمةً واحدة: أنا. تحتها حرفٌ طفلٌ يبتسم. ابتسمت له وردّت القلمَ إلى مكانه. سمعت من الشارع بائعةَ الزعتر تقول بصوتٍ هادئٍ كدعاء: «لا يموتُ مَنْ ضاع... إنما يزهر في مكانٍ آخر».

جاء النادلُ من الباب الخلفي، كأنه أتى من حلمٍ لم يُحكَ. نظر إلى الكرسيّ المحجوز. كان عليه طبقةُ غبارٍ أسمك من أيّ وقت. هزَّ رأسه. مرَّر كفَّه على اللوح الخشبيّ فوق الجدار. لمس الكلمةَ المحفورة: ضياع. خُيّل إليه لوهلةٍ أن الكلمةَ صارت أدفأ. ابتسم ابتسامةً لا تشبه الوقائع. ثم علّق لافتةً صغيرةً عند الباب: مفتوح لمن يكتب اسمه مرةً أخيرة.

في الخارج، تحرّكت الساعةُ إلى السابعة وأربعٍ وعشرين. مرَّ الطفلُ بدائرةٍ طبشوريةٍ جديدة. كتب داخلها اسماً لم يره أحد. رفَع رأسَه إلى النافذة. كان هناك ظلٌّ يلوّح له. ابتسم ومدَّ يده عبر الهواء. لم يلمس شيئًا؛ لمس شيئًا. واصل المشي.

في اليوم التالي، حين سأل أحدهم بائعةَ الزعتر عن الرجل الذي كان يسألها: «أتعرفينني؟» قالت وهي ترتّب أكياسَها الصغيرة: «الذي تأخّر؟ لا... لم يتأخّر. وصل. لكنّه لم يَعُد بحاجةٍ إلى سؤال». ثم أغلقت عينَيها لحظةً، كمن يضع يدًا على الاسم حتى لا يهرب.

في آخر الليل، حين هدأ كلُّ شيء، نهضت كلمةٌ واحدةٌ محفورةٌ على الخشب وغمغمت في الظلام: ضياع. كان صوتُها يشبه حفيفَ شجرة ليمونٍ يتيمةٍ في ساحة مدرسة. وكان في الحفيفِ وعدٌ جديد: أن كلَّ مَنْ يضيعُ، إنْ كتبَ نفسه مرةً، لن يختفي... بل سينعكسُ، كالقمر، على سطحِ قهوةٍ تُقدَّم في الباب السادس، لمن يأتي متأخرًا بما يكفي ليصل في الوقت

الأصدقاء... صدى الغياب

أربعة أرواح وُلدوا من صدفة، لا من دم. جمعتهم طفولة يتيمة تحت شجرة تين مهملة، فصاروا وطنًا صغيرًا يمشي على أربع خطوات. كانوا يضحكون كأنهم قلب واحد، ويبكون كأنهم جرح واحد.

كبروا... واكتشفوا أن الصداقة ليست وعدًا بالكمال، بل غفران للخيانة الصغيرة، ويدٌ تُمسك بك حين يسقط جسدك في وحل المرض. ظلوا يؤمنون أن ما يربطهم خيط غير مرئي، لا تقطعه مسافات ولا يجرحه الزمن.

وفي لقاءٍ بعد غياب طويل، اصطدمت الحياة بلحظتهم. دهست سيارة أحدهم، فسقط بينهم كقمر ينطفئ بين نجومه. ابتسم وهو يهمس:

“كنت أعلم أن النهاية ستكون معكم... لا وحيدًا.”

لكن هاتفه فضح صدمته الأخيرة:

“كنت أنوي السفر بعيدًا وترككم دون وداع... لكن الله اختار أن أودّعكم هكذا.

عندها أدرك الثلاثة أن الصداقة ليست زمنًا يُعاش، بل سرًّا يُدفن في القلب، وأن الموت قد يكون أوفى من الحياة، لأنه يربط الأرواح إلى الأبد

القتل فخرًا

البداية: المجد الملطّخ بالدم

في بلدة صغيرة يحكمها الصمت والخوف، كان سليم يتباهى أمام أصدقائه بأن القتل ليس جريمة بل بطولة. يرفع رأسه عاليًا، كأن كل رصاصة أطلقها وسام على صدره.

الناس من حوله بين صامتٍ مرتجف، ومصفّقٍ منافق، أما هو فكان يرى في الدم مرآةً لصورة متضخّمة.

كان يردد دائمًا:

"أنا لا أقتل بدافع الغضب، بل لأثبت أنني رجل. القتل فخر لا يدركه الجبناء."

ومع كل ضحية جديدة، كان غروره يكبر، واسمه يتحول إلى صفارة إنذار معلّقة بين الحياة والموت.

العقدة: الحفلة الأخيرة

في إحدى الليالي، أقام سليم حفلة صاخبة، سماها "عرس النصر".

دخل القاعة بثياب سوداء، أشبه بكفن مؤجل، والأضواء الخافتة تزيد وجهه قسوة.

وقف يخطب بين ضيوفه بصوت عالٍ:

"اليوم أرفع كأس الانتصار. كل جثة ورائي كانت جسرًا أعبر عليه نحو المجد. القتل هويتي، ومن يجرؤ على معارضتي فليجرب حظه."

ضحك البعض مجاملة، صمت آخرون خوفًا، فيما اشتعلت عيون قليلة بكراهية مكتومة.

الذروة: المفاجأة المدوّية

بينما كان يملأ كأسه بخمرة حمراء، اقترب منه طفل لم يتجاوز الثانية عشرة. عيناه دامعتان وصوته مرتجف:

"أنت تفتخر بقتل أبي... لكنك نسيت شيئًا."

ابتسم سليم بازدراء:

"أبوك كان مجرد خطوة صغيرة في طريقي. وأنت، ما الذي ستفعله؟"

عندها أخرج الطفل مسدسًا صغيرًا، كان يومًا لسليم نفسه حين رماه ساخرًا قائلاً: "هذه لعبة لا تصلح إلا للأطفال."

ضغط الطفل الزناد.

رصاصة وحيدة اخترقت صدر سليم، فسقط أرضًا، والكأس الأحمر ينقلب فوقه، يمتزج الخمر بدمه في مشهد لا يميّز فيه أحد بين أيهما أُريق.

النهاية: سقوط الأسطورة

خيم الصمت على القاعة. تجمدت الأنفاس.

اقترب الطفل وهمس، والدموع على وجهه:

"أبي لم يكن عدوك... كان إنسانًا فقط."

هكذا انتهى "البطل" الذي جعل من القتل فخرًا.

لم يسقط برصاص أعدائه الكبار، بل برصاصة طفل أعاد للعدالة براءتها الأولى.

في اليوم التالي لم تكتب الصحف: "قُتل رجل شرس".

بل كتبت:

"سقطت أسطورة القتل... على يد طفل أعاد تعريف الشجاعة."

انفصام –

في مدينةٍ يسكنها صمتٌ كثيف، عاش رجل يُدعى سليم. كان الناس يرونه رجلاً واحدًا، لكن داخله كان يضجّ بأصوات متناحرة.

في الصباح، يستيقظ على وجهٍ باسمٍ يضيء كلّ من حوله، وفي المساء يخلع ابتسامته كما يخلع ثوبه المبتل، ويجلس معتمًا كقمرٍ مكسور.

كان يحمل في جيبه مرآتين صغيرتين:

واحدة تعكس صورته كما يريدها للناس؛ متماسكة، مطمئنة، واثقة.

وأخرى تعكس صورته كما يراها هو؛ متشظية، متكسّرة، كزجاجٍ سقط من علوّ شاهق.

كلّ مرآةٍ تدّعي أنها الحقيقة.

وكان سليم يتيه بينهما، لا يعرف أيّهما يصدّق: وجهه الذي يراه الآخرون، أم وجهه الذي ينزف في أعماقه.

ذات مساء، جلس على جسرٍ قديمٍ يربط ضفّتين متباعدتين. في الضفّة الأولى، عاش الناس مجتمعين يتحدثون لغة واحدة، وفي الضفّة الثانية، لم يكن أحد إلا ظلالًا تتجادل بلا توقف

حين نظر أسفل الجسر، رأى النهر منقسمًا إلى مجريين متوازيين، كلاهما يتدفقان نحو البحر، لكن كل واحدٍ بلون مختلف.

فهم عندها أن انفصامه لم يكن مرضًا، بل كان مرآةً للكون نفسه: كل شيء مزدوج، كل شيء يحمل نقيضه في داخله.

النور لا يقوم إلا على الظلمة، والاتساق لا يولد إلا من الفوضى.

ابتسم أخيرًا، لا لأنه وجد الجواب، بل لأنه أدرك أن التمزق جزء من إنسانيته، وأن الوحدة المطلقة وهمٌ لا يسكن إلا عقول الآلهة.

ثم قام، ترك المرآتين على الجسر، وسار نحو البحر، حيث يلتقي النهران، لعلّه يجد هناك وجهًا واحدًا يكفيه

ذاكرة الموج

الفصل الأول: الولادة الغامضة

في تلك الليلة، بدا البحر كأنه يغيّر نَفَسَه. هدأ فجأة، ثم تنفّس طويلًا، كأن موجًا عتيقًا في صدره يريد أن يقول شيئًا ولا يقوله. في كوخٍ صغير عند طرف القرية، أضاءت قنديلة وحيدة وجه القابلة، وارتجفت يدها وهي تسمع أنين امرأة شاحبة، لا تصرخ، فقط تطبق أسنانها على شهقة وتتركها تطير.

وُلد الطفل دون بكاء. هذا ما أخاف القابلة، فمالت نحو وجهه تبحث عن الصرخة المألوفة فلم تجدها؛ وجدت عينيه فقط، مفتوحتين كنافذتين على ضوء غير مرئي. كان جسده دافئًا أكثر مما ينبغي، وكفّه الصغيرة انغلقت على هواء الغرفة كأنه يمسك خيطًا لا يراه أحد سواه.

لم تمضِ ساعة حتى أُسدل الستار على الأم. رحلت كما جاءت الليلة: بلا ضجيج. الأب، "سالم"، جلس على العتبة، يثبت نظره في حفرة ظلال على الأرض. لم يمدّ يده ليبكي، ولا عرف ماذا يقول للجار الذي جاء يحمل الماء. فقط همس:

— سمّيناه آدم.

انتشر الخبر قبل أن يطلع الفجر. قرية صغيرة لا تُخفي سرًا، والنساء يتهامسن:

— لم يبكِ الطفل...

— عيناه تضحكان للهواء...

— ربما هو من الأولياء... وربما...

في اليوم الثالث، رأته "حسنية" العجوز—امرأة كانت تُستشار في الشدائد، لها سيرة طويلة مع المرضى والضائعين. اقتربت من سرير الخوص، وضعت سبّابتها على جبينه ثم سحبتها بسرعة، وقد وخزها دفءٌ غريب. تمتمت:

— هذا الصبي جاء ومعه علامة... لا تخافه، يا سالم، ولكن لا تجرّبه.

كبر السؤال في صدر الأب: ما العلامة؟ ولماذا أوصته العجوز ألا "يجرّب" ابنه؟ لزم الصمت. وحين نام العالم، كان يسمع من ناحية المهد حروفًا مبعثرة، كأن الطفل يتهجّى لغته الخاصة وهو يحلم.

في اليوم السابع، حمل سالم رضيعَه إلى البحر. وقف حيث ينكسر الموج هادئًا، وقال:

— أمّكِ أحبّت الماء... وها أنا أعرّفك عليه.

لم يدرِ كيف لاحظ ذلك: حين اقترب من الزبد، توقّف الموج لحظةً قصيرة، قصيرة جدًا، لكنها كانت كافية ليحسّ الأب أن البحر... أنصت.

عاد سالم بالطفل، وفي عينيه شيء يشبه اعتذارًا للعالم: سيكبر هذا الصغير، وستكبر معه أسئلة لا جواب لها.

الفصل الثاني: بدايات مختلفة

على غير عادة الأطفال، لم تكن بدايات آدم صاخبة. كان يسكت طويلًا ثم ينطق جملة كاملة، جملة لا تشبه ما يقوله الصغار. في عامه الثالث، أمسك حصاة على الشاطئ وقال لأبيه بصوتٍ متردد:

— هذه ليست من هنا... هذه كانت هناك... ثم جاءتها سفينة كبيرة، ونامت سنوات في بطن حوت.

ضحك سالم على استحياء، ثم التفت فوجد "حسنية" تقف غير بعيد وتومئ للصغير أن يتابع. سألته:

— أين "هناك"؟

قال وهو يشير إلى الأفق:

— وراء الخطّ الأبيض.

في المساء نفسه، رسم آدم بأصبعه على الرمل دوائر وخطوطًا متقاطعة. بدت كحروفٍ لا يعرفها أحد. مرّ صيادٌ ونظر إلى الرسم ثم غمره برجله كي لا يراه أحد آخر. تمتم:

— لا نريد متاعب.

لم يكن آدم يطلب شيئًا من العالم، العالم هو الذي كان يطلب منه. الطيور كانت تهبط قربه دون خوف، والقطط تركن إلى ظلّه. وإذا عبَرت أمامه امرأة حاملة جرّة ماء، رفع رأسه وتأمّل خطواتها ثم قال لليان—الطفلة اليتيمة التي صارت صديقته الوحيدة:

— الماء يثقل قلوبنا عندما نحمله طويلًا... لكن البحر لا يتعب.

تضحك ليان، وتعيد الجملة بصوتٍ مقلّد:

— البحر لا يتعب! وهل نتعب نحن؟

فيجيب كمن يقرأ من كتابٍ لا يراه أحد:

— نتعب لأننا لا نعرف أين نضع ثِقَلَنا.

كانت ليان تطرق بابه كل صباح وتهمس من خلفه: "آدم، إلى الشاطئ". يعرف صوتها فينهض، يلتقط عُلبة الألوان التي أهداها له معلم المدرسة، ويمشيان على الطريق الضيق بين البيوت. يشيران إلى البحر كأنهما يتفقان معًا: هذا ملعبنا، وهذا معلمنا الأول.

في المدرسة، وقف المعلم أمام لوحة الحروف، يلقّن التلاميذ: ألف، باء، تاء... كان آدم يتبع معه بلا حماس، ثم فجأة كتب على ورقة: "ما قبل البحر وما بعد البحر". نظر المعلم إلى الجملة بإعجاب وحذر؛ لم يرد أن يُظهر دهشته أمام بقية الصغار. استدعى سالم بعد الدرس وقال له:

— ابنك يرى أسرع من الآخرين. احذر عليه من عيون الناس.

سأل سالم:

— أأمنعه من المدرسة؟

— لا، لكن علّمه الصمت حين يلزم.

غير أن الصمت لم ينقذه من الشائعات. صار بعض الأهالي يمنعون أبناءهم من اللعب معه. قالت أمّ طفلٍ لصديقةٍ لها:

— هذا الصغير يعرف ما لا ينبغي أن يعرفه طفل.

وردّت الأخرى:

— أو ربما نحن الذين لا ينبغي أن نجهل.

في عصرٍ دافئ، ظهرت "حسنية" عند الشاطئ. جلست قرب آدم وليان، وبيدها قطعة قماش قديمة نسجتها بنفسها. بسطتها على الرمل، فإذا هي مليئة برموز دقيقة: أنصاف دوائر، مثلثات صغيرة، نقط متراصّة. قالت لآدم:

— أترى هذه؟ هذه لغةٌ قديمة، مات أهلها ولكن بقيت حروفهم في البحر.

نظر آدم طويلًا، ثم بدأ يرسم فوق القماش أشكالًا مماثلة، لكنه غيّر ترتيبها. تتابعت أنامله كأنها تتذكّر. شهقت العجوز وهمست لسالم الذي كان يراقب من بعيد:

— قلت لك، جاء ومعه علامة.

في الليلة نفسها، هبّت ريح قصيرة ثم توقفت. خرج سالم يتفقد الأبواب، فرأى ابنه واقفًا في العتمة، يحدّق في خط الأفق الغارق. ناداه برفق:

— ماذا ترى؟

قال آدم بلا التفات:

— الذين تحت الماء... يضيئون البيوت التي لا نراها.

— أي بيوت؟

— البيوت التي يسكنها الذين لا ينامون.

لم ينم سالم بعدها بسهولة. يحاول أن يضع كلمات ابنه في خانة الخيال الطفولي، لكن شيئًا في نبرة الصوت لم يكن طفوليًا. في الصباح، استوقفته حسنية وقالت:

— لا تفسّر كل شيء لصالح العقل يا سالم... أحيانًا يحتاج العقل أن يصمت ليعبر.

أجاب وهو يمدّ نظره إلى ابنه:

— أخاف عليه من الناس.

— خَف عليه من خوف الناس، لا من الناس أنفسهم.

أمّا ليان، فكانت ترى في آدم شيئًا بسيطًا واحدًا: صديقها الذي يفهمها دون أن تشرح. إذا حزنت، لا يسأل لماذا؛ فقط يجلس بجوارها ويصغي للريح كأنّها تحكي عنهما. وفي إحدى المرات قالت له:

— لو كان لك سرّ، أعدني ألا تخبّئه عني.

ابتسم:

— أعدك... إذا كان السرّ لي.

— ماذا تقصد؟

— بعض الأسرار لا يملكها من يحملها.

مرّت الأشهر، وكبُر معه الشعور بأن هناك موعدًا ينتظره. كان إذا اقترب المساء، جلس على الصخرة العالية يسمّي الموج بأسماء غريبة: "العابر"، "الحارس"، "الذي لا يعود". تحفظ ليان الأسماء وتضحك، لكنه لا يضحك كثيرًا. يظل ينظر إلى الماء ويقول بصوتٍ لا يسمعه أحد سواها:

— ليس بعيدًا اليومُ الذي يسألني فيه البحر: من أنت حقًّا؟

الفصل الثالث: الصديق الوحيد

لم يكن في القرية من يقترب من آدم سوى ليان. فتاة يتيمة، تسكن مع عمّتها الصارمة التي لم يكن يعنيها من العالم أكثر من تدبير قوت اليوم. ليان كانت تعرف معنى أن تكون غريبًا بين الناس، لذلك لم تخف من غرابة آدم.

كانا يلتقيان كل صباح عند طرف السور الحجري الذي يطلّ على البحر. تحمل هي معها رغيفًا يابسًا وبعض الزيتون، ويحمل هو ألوانه أو دفترًا صغيرًا منحه إياه معلمه. يقضيان الساعات في رسم الأمواج وتعداد الطيور، ثم يضحكان على الأشكال التي تتكوّن في الغيم.

في أحد الأيام، قالت له:

— ليتني أملك جناحين لأطير بعيدًا عن هذه القرية.

أجابها بهدوء:

— لديك جناحان، لكن الناس لا يرونهما.

ابتسمت:

— وأنت؟ هل لديك جناحان؟

— عندي... ولكن البحر هو جناحي.

شيئًا فشيئًا، صار أهل القرية يتهامسون: "ليان الوحيدة التي تجرؤ على مرافقة الغريب." لم تكترث، ولم يسعَ آدم لتبرير صداقتهما. كان يكفيه أنها تنظر إليه دون خوف، بل بعينين فيهما دهشة وفضول، لا اتهام ولا ريبة.

وفي مساءٍ عاصف، جلسا معًا على الصخرة العالية. كان الموج يرتفع أكثر من المعتاد، والريح تصفّر كأنها تُنذر بشيء. قال آدم وهو يحدّق في الأفق:

— تسمعين؟

— أسمع الريح فقط.

— ليست ريحًا... إنهم يكلّمونني.

شهقت ليان:

— من؟

— الذين تحت الماء.

ارتجفت الصغيرة، لكنها تماسكت. لم تشأ أن تتركه وحيدًا في غرابته. فقط وضعت يدها في يده، وقالت:

— إن كانوا يكلّمونك، فأخبرهم أنني هنا أيضًا.

كان ذلك الموقف أول عهدٍ بينهما: مهما بدا العالم غريبًا، لن يتركا بعضهما.

الفصل الرابع: المرأة العجوز

ظهرت حسنية كأنها تعرف اللحظة المناسبة. كانت امرأة تخطّت التسعين، لكنها تمشي بخفة، وعيناها تحملان بريقًا لا يخبو. جلست قرب آدم وليان وهما يرسمان على الرمل. نظرت طويلاً في النقوش التي خطّها آدم، ثم تمتمت:

— ها قد عادت الرموز... بعد زمن طويل.

رفع آدم رأسه، شعر لأول مرة أن أحدًا يفهم ما يرسمه. سألها:

— تعرفين هذه الرموز؟

— أعرفها... وأخافها. إنها لغة البحر القديمة، لغة الذين رحلوا وظلّ أثرهم في الموج.

— ولماذا أعرفها أنا؟

ابتسمت بحزن:

— لأنك منهم، يا ولدي.

تدخّلت ليان بدهشة:

— ماذا تقصدين؟ هو وُلد هنا مثلنا.

هزّت العجوز رأسها:

— لا، يا صغيرة. ولد هنا جسدًا، لكن روحه لم تأتِ من هنا. البحر أرسله إلينا

ساد صمت ثقيل. ليان نظرت إلى آدم بعينين قَلِقتين، كأنها تخشى أن تفقد صديقها. أما هو فظلّ ساكنًا، وكأنه كان ينتظر هذا الجواب منذ زمن.

ثم انحنت حسنية نحوه وهمست:

— ستأتيك ليلة يُنادى عليك فيها. حينها لا تقاوم، ولا تتردد. البحر لا يستدعي أحدًا عبثًا.

ابتعدت العجوز بخطوات بطيئة، تاركة وراءها أثر كلماتها كالحجارة الثقيلة في صدر الصغيرين. التفتت ليان إلى آدم وقالت بعناد:

— لا أريدك أن تذهب.

أجابها بصوتٍ مبحوح:

— ولا أنا... لكن ربما ليس الأمر بيدي.

الفصل الخامس: الرموز الغامضة

في صباحٍ باكر، استيقظت القرية على مشهد غير مألوف: صخور الشاطئ كلّها مغطاة بنقوش غريبة. دوائر متشابكة، مثلثات، أشكال تشبه الأمواج ولكنها منتظمة كأنها رسالة مرسومة.

هرع الناس ليروا ما يحدث. أحد الصيادين صاح:

— هذه ليست يد طفل! هذه أيادي الشياطين!

لكن ليان كانت تعرف الحقيقة: الليلة الماضية رأت آدم يجلس على الرمال ساعات طويلة، يرسم بيديه العاريتين وكأنه مأخوذ بسحرٍ لا ينتهي. لم تستطع أن توقفه، ولم تجرؤ أن تخبر أحدًا.

حين واجهه أهل القرية، لم ينكر. وقف أمامهم وقال بهدوء:

— لم أفعلها وحدي. البحر أملى عليّ هذه الأشكال.

ازداد همس الناس: بعضهم خاف وتراجع، والبعض الآخر صاح غاضبًا:

— لا نريد طلاسم بين بيوتنا! امسحها فورًا!

لكنهم فوجئوا أن الأمواج، عند أول مدٍّ، لم تمحُ الرسوم كما تفعل عادة. بل بقيت ثابتة، كأن البحر نفسه يحميها.

جاءت حسنية بين الجمع، نظرت إلى النقوش مطوّلًا ثم قالت:

— هذه ليست شياطين، بل علامات. من يقرأها يفهم أن شيئًا قادمًا إلينا... كبيرًا.

لكن كلماتها لم تُهدّئ الخوف، بل زادته. فالعقل البشري حين يواجه المجهول، يفضّل أن يراه شرًّا لا خيرًا.

الفصل السادس: العداء والخوف

منذ ذلك اليوم، تغيّر كل شيء. صار الأطفال يهربون إذا لمحوا آدم قادمًا. النساء يتعوّذن إذا مرّ قرب بيوتهن، والرجال يتهامسون بأن بقاءه خطر على القرية.

حتى والده، سالم، لم يعد قادرًا على الدفاع عنه. جلس في الليل أمامه وقال:

— يا بني، أخاف أن يؤذوك. قل لي... ما حقيقتك؟

نظر آدم إلى الأرض وتمتم:

— لو قلت لك، هل ستصدّق؟

— جرّبني.

رفع عينيه، كانتا تلمعان بجدية تفوق عمره:

— أنا لا أنتمي إليكم تمامًا. البحر يعرفني أكثر منكم.

ارتجف سالم، ولم يجرؤ على سؤال المزيد.

ليان، وحدها، بقيت بجانبه. كانت تهمس له:

— لا تهتم بما يقولون، أنت لست غريبًا عني.

لكن قلبها الصغير كان يرتجف، لأنها هي أيضًا لم تعد تفهم إلى أي عالم ينتمي صديقها.

في اجتماع للقرية، قال أحد الرجال:

— يجب أن نقرر. إمّا أن نحبسه، أو نطرده. لا أمان لمن يرسم طلاسم ويكلم البحر!

اعترض آخر:

— لكن ربما هو بركة! ألا ترون أنه لم يؤذِ أحدًا؟

ردّ الأول ساخرًا:

— البركة لا تُخيف الأطفال ولا تملأ الصخور بالرموز!

سادت الفوضى، وفي النهاية اتفقوا أن يراقبوه عن كثب، وأن يمنعوه من الاقتراب من البحر وحده

لكن آدم لم يكترث. كان يعرف أن الموج يناديه بصوتٍ لا يسمعه أحد سواه، وأن يوم المواجهة يقترب أكثر فأكثر

الفصل السابع: الرؤيا

في تلك الليلة، غرق آدم في نومٍ عميق لم يعرفه من قبل. رأى نفسه في قاع البحر، بين شعاب مرجانية مضيئة كأنها قناديل معلّقة في السماء. كانت هناك كائنات غريبة، لا هي بشر ولا سمك، لها وجوه تشبه الوجوه لكنها تتلألأ كالنجوم.

اقترب أحدها منه وقال بصوتٍ يشبه هدير الأمواج:

— آن أوان الحقيقة. أنت لست طفلًا عاديًا... لقد وُلدت هنا جسدًا، لكن روحك جاءت من عالمنا. نحن "الحُرّاس"، نحمل ذاكرة البحر ونحميها من النسيان.

تجمّد آدم مكانه، فسأله الكائن:

— هل تسمع ندائنا منذ ولادتك؟

أجاب:

— نعم... لكنني لم أفهمه.

— ستفهم قريبًا. القرية التي تحتضنك تخبّئ سرًّا قديمًا، وإذا لم يكشف، سيغرق كل شيء.

استيقظ آدم فجأة، يلهث كمن خرج من عمق البحر بالفعل. كان الليل ساكنًا، إلا من صدى الأمواج الذي بدا له واضحًا ككلمات تتردّد.

في الصباح، جلس مع ليان وحدّثها عن رؤياه. ارتجفت الصغيرة، لكنها أمسكت يده وقالت:

— حتى لو كنت من عالم آخر، لن أتركك. لكن... ما السرّ الذي يهدد قريتنا؟

لم يعرف الجواب. فقط أحسّ أن النهاية قريبة، وأنه سيكون عليها مواجهة الحقيقة مع الجميع.

الفصل الثامن: المواجهة

ازدادت شكوك القرية. كانوا قد رأوا الرموز، وسمعوا بعض الأطفال يهمسون بأنهم لمحوا آدم يتحدث مع البحر. اجتمعوا في الساحة، وقرروا أن يضعوا حدًا للأمر.

وقف أحد الرجال وصاح:

— هذا الولد خطر علينا! إما أن يرحل، أو نحبسه قبل أن يجلب الكارثة!

اقتادوا آدم إلى الساحة. التف الناس حوله، عيونهم خليط من خوف وكراهية.

تقدمت ليان بين الجمع، تبكي:

— إنه لم يؤذِ أحدًا! لماذا تخافون منه؟

لكن صوتها ضاع وسط الجلبة.

رفع آدم يده، وعمّ السكون لوهلة. نظر إليهم جميعًا وقال ببرود لم يُعرف عن طفل:

— لست منكم... البحر هو أصلي.

تعالت الصرخات. بعضهم رماه بالحجارة الصغيرة، وآخرون صرخوا "شيطان!"، "ملعون!". لكن فجأة ارتفع الموج من بعيد، كأنه يسمع ويغضب.

حسنية العجوز اندفعت بعصاها وقالت بصوتٍ حاد:

— كفّوا! أنتم لا تفهمون... هذا الصبي ليس لعنة، بل نذير. البحر لا يرسل أبناءه إلا لسبب.

لكن لم ينصت لها أحد. الفوضى غلبت المكان، وصوت الموج كان يزداد علوًّا، كأنه يتهيأ لابتلاع القرية كلها.

آدم، وسط الضجيج، أغلق عينيه وتمتم:

— حان وقت الرحيل.

الفصل التاسع: الاختفاء

في تلك الليلة، لم يهدأ البحر. هبّت عاصفة لم يشهد مثلها أهل القرية من قبل. كانت الأمواج تضرب الصخور كأنها طبول حرب، والريح تعوي كذئبٍ جائع.

وسط الظلام، شوهد آدم على الصخرة العالية، واقفًا بثبات غريب، شعره يرفرف والبرق يضيء عينيه.
صرخت ليان من بعيد:

— آدم! انزل! سيقتلك البحر!

لكنه لم يلتفت. رفع يديه إلى السماء ثم إلى الماء، كأنه يتحدّث مع قوتين في آن واحد. صرخ بصوتٍ اخترق العاصفة:

— أنا أعرفكم الآن... لن أخاف منكم!

اقتربت حسنية العجوز وهي تجرّ جسدها المثقل وقالت

— دعه، يا ليان... إنهم يستدعونه. هذه ليلته.

وبينما البرق يشق السماء، لمع حوله نور غريب، كأن الأمواج تحميه لا تهاجمه. ثم... اختفى. لم يسقط، لم يُبتلع، فقط تلاشى كأن البحر ابتلعه برفق.

في الصباح، لم يجدوا له أثرًا. لا جسد، لا ثياب، لا شيء سوى دفتر صغير مبلل، عالق بين الصخور. فتحت ليان صفحاته، فإذا فيه جملة واحدة بخط واضح:

"سأعود حين تستحقون الحقيقة."

الفصل العاشر: النهاية الصادمة

مرّت سنوات. كبُرت ليان، وصارت شابة تحمل ملامح الحزن والدهشة التي تركها صديق طفولتها في قلبها. احتفظت بالدفتر، وعادت مرارًا لتتأمل الرسوم التي تركها على الصخور.

وذات مساء، حين كانت تقلب الدفتر بين يديها، لاحظت شيئًا لم تفهمه من قبل. الرموز لم تكن رسوماً عشوائية، بل خريطة! خطوط تشير إلى مكانٍ تحت البحر، قبالة القرية مباشرة.

قرأت الجملة الأخيرة من جديد، وشعرت بقشعريرة:

— "سأعود حين تستحقون الحقيقة."

وفي تلك اللحظة، ارتجّ البحر أمام عينيها. ظنت أنه مدّ عادي، لكن صيادًا عجوزًا صاح:

— ليس هذا مدًّا... البحر يغلي!

ارتفع الموج بشكل غير مسبوق، وفي قمّة الموجة، رأت ليان ظلًّا مألوفًا: طفل واقف، يبتسم كما في الماضي، ثم يختفي بين المياه.

شهقت، وسمعت صوتًا في داخلها، لم يكن خارجيًا بل كأنه يتردّد في قلبها:

— لم يحن الوقت بعد.

ومنذ ذلك اليوم، لم يعد البحر كما كان. صار كل من يقترب من الشاطئ يشعر أن هناك عيونًا تراقبه من الأعماق. أما ليان، فظلت تؤمن أن آدم لم يختفِ، بل ينتظر لحظة العودة... لحظة الحقيقة التي ستصدم القرية والعالم معًا.

✨ النهاية... أم البداية؟

ما يدور في السماء: اعترافات الكائن الأزلي

رفعتُ عيني نحو العلو، فوجدت السماء تنحني إليّ كأمّ عظيمة، تفتح صدرها لأطفالها. لم تكن صامتة كما تعوّدنا، بل ناطقة بلغةٍ لا تُسمع إلا بالقلب. قالت لي:

"أنا لست قبةً زرقاء، ولا مجرد فضاء، أنا كائن حيّ. في دمي تسري المجرات، وفي أنفاسي يولد النهار والليل. أنا لا أسكن فوقكم، بل أعيش فيكم، أنتم رئتاي على الأرض."

اعتراف السماء الأول: سرّ الدوران

قالت السماء: "كل ما فيّ يدور، ليس لأن الحركة قانون، بل لأن الدوران صلاة. المجرات تسجد وهي تسبح، والنجوم تركع وهي تحترق، والأرض تطوف حول الشمس كما يطوف المؤمن حول البيت. نحن لا نتوقف عن الطواف، لأن التوقف موت، والموت في السماء ليس فناء بل انطفاء نور."

اعتراف السماء الثاني: سرّ الملائكة

لم أرَ الملائكة بأجنحة، بل كخيوط ضوء تشق الظلام. قالت السماء: "الملائكة ليست فوقكم، بل تتخلل أنفاسكم. كلما غفرتم، وُلدت أجنحة جديدة لكم. كلما أحببتم، صار قلبكم نجمًا في جسدي. الملائكة ليست مخلوقات منفصلة، إنما هي أنتم حين تعتنقون النقاء."

اعتراف السماء الثالث: سرّ النجوم

أشارت إلى نجم بعيد وقالت: "هذا قلب أمّ أُحرقت بالوجع، ما زال يضيء لأطفالها في ظلام الأرض. وذاك نجمٌ آخر هو روح شهيد، لم ينطفئ بل تسلّل إليّ ليكون مشعلًا لغيره. النجوم ليست حجارة نارية، بل أرواح حيّة، كل ومضة منها قصة إنسانية تكتب في جسدي."

اعتراف السماء الرابع: سرّ الإنسان

ثم نظرت السماء في عيني وقالت: "تظنون أنكم تسكنون الأرض فقط، لكنكم تسكنونني أنا أيضًا. أنتم أحلامي الماشية على تراب، وأنا أحلامكم المتوهجة في الفضاء. حين تكرهون، يضطرب جسدي، وحين تحبّون، تنفتح مسارات النور داخلي. أنتم أنا، وأنا أنتم، نحن كائن واحد مقسوم بين الطين والنور."

الخاتمة – العودة إلى الذات

حين أغمضت عيني، شعرت أني لم أعد أنظر إلى السماء، بل إلى مرآة نفسي. وما يدور في السماء لم يكن إلا صدى ما يدور في داخلي. أدركت أن الدوران الكوني ليس إلا انعكاسًا لدوران الروح، وأننا إن توقفنا عن المحبة والغفران، تكسرت أنغام هذا الرقص الأزلي.

السماء إذن، ليست بعيدة. إنها تعيش فينا كما نعيش فيها، وتدور بنا كما ندور بها. وفي النهاية، سنعود جميعًا إلى قلبها الكبير، حيث لا موت، بل عودة إلى النور.

يا أبيضّ يا أسود

في تلك المدينة البعيدة، حيث تُقسَّم الأرواح كما تُقسَّم الطرقات، لم يكن مسموحًا للإنسان أن يرى إلا بلونين: أبيضٌ ناصع يرمز للنقاء المزعوم، أو أسود قاتم يُصنَّف كظلامٍ مطلق. أما باقي الألوان، فكانت تُعَدّ أوهامًا خطيرة تهدّد النظام.

كان الطفل حين يولد يُعلَّق على معصمه سوارٌ يحدّد مصيره: أبيض أو أسود، ومنذ تلك اللحظة، يَحمل داخله قيدًا لا يُكسر. المدارس، البيوت، أماكن العبادة، وحتى المقابر... كلها مفصولة بخطّين متوازيين لا يلتقيان.

غير أن سلمى، الطفلة التي وُلدت بسوار أبيض، حملت سرًّا لم تستطع دفنه. كانت ترى ما لم يُرد لها أن تراه. ففي الصباح، كانت تلمح أن ضوء الشمس ليس أبيض خالصًا، بل يتشعّب في زرقة وذهبيّة وأرجوان. وحين تهطل الأمطار، كانت تتابع القطرات وهي ترسم على التراب لوحةً تنبض بألوان لم تُسمَّ في كتب مدينتها.

سألت والدها يومًا، وهي تحدّق في السماء:

– أبي، هل قوس قزح حقيقي؟

نظر إليها بحدة، وقال:

ـ قوس قزح كذبة يا سلمى. من اخترعه أراد إفساد عقول الناس. العالم بسيط: أبيض أو أسود. لا تتركي الخيال يضلّلك.

لكن قلبها لم يعرف الطمأنينة.

تمرّد الطفلة

كبرت سلمى وهي تزداد قناعة أن الحقيقة أوسع من الثنائية القاتلة. كانت ترسم خفيةً على جدران غرفتها: بقعة خضراء كغصن زيتون، خطًا أزرق كالبحر، وهالة حمراء كنبض القلب. وكلما رسمت لونًا جديدًا، شعرت أن روحها تتنفّس.

وذات ليلةٍ حالكة، حين كانت المدينة نائمة على بياضٍ وسواد، خرجت إلى الساحة الكبرى تحمل دلوًا من الألوان التي خبأتها طويلًا. رفعت الدلو وسكبته في قلب الساحة. فجأةً انفجر المكان بفيضٍ من الألوان: الأصفر يجاور البنفسجي، والأزرق يعانق البرتقالي، والأحمر يمتد كاللهب.

ارتجّت المدينة. بعضهم صرخ: "خيانة!". آخرون ارتجفوا خوفًا. غير أن الأطفال، ببراءتهم، اقتربوا يلمسون الجدار الملوّن، وضحكاتهم تتعالى. كانت تلك اللحظة أول تصدّع في جدار الصمت.

الاضطهاد والولادة

لم تغفر لها المدينة فعلتها. طُردت من مدرستها، وأُدخلت "سجن الألوان الممنوعة". جُرّدت من سوارها الأبيض، وأُلصق عليها لقب "المتمرّدة". لكن ما لم يفهمه الحاكمون أن البذور التي نثرتها كانت قد بدأت تنبت.

في الليل، تسللت نساءٌ يخبزن خبزًا بزينةٍ من بذور ملونة. شبابٌ رسموا خطوطًا صغيرة من الأزرق والأخضر على وجوههم. أما الأطفال، فقد صاروا يركضون في الأزقة يبحثون عن بقايا اللون. كان الكبت الطويل قد انفجر، وصار الناس يرون أن بين الأبيض والأسود مساحات رحبة من حياة لم يذوقوها من قبل.

انتصار الألوان

مرت سنوات. انهار السور الفاصل بين الحارتين البيضاء والسوداء، وبدأت المدينة تتحول شيئًا فشيئًا إلى فسيفساء من ألوان. صارت الساحات لوحات، والجدران دفاتر، والوجوه مرايا للحرية.

وحين كبرت سلمى وصارت جدة، جلست ذات مساء تحكي لحفيدتها الصغيرة. سألتها الطفلة بعينين متوهجتين:

ـ جدتي، لماذا يسمّونك "أم الألوان"؟

ابتسمت سلمى، رفعت يديها العجوزتين كأنها تحمل قوس قزح في راحتيها، وقالت:

ـ لأنني رفضتُ أن أختصر العالم في يا أبيضّ يا أسود. آمنتُ أن الحياة كلها ألوان، وأن شجاعة الإنسان تكمن في أن يرى ما بين النهايتين، فيخلق مساحته الحرّة، ويمنح نفسه حقّ أن يكون كلّ الألوان.

أسطورة الطيور المأسورة: حين يغنّي الأسرى أقوى من الحديد

ليست الحكاية هنا عن أقفاص وسجّانين فقط، بل عن الحرية التي تأبى الانكسار، وعن أرواح تحوّلت إلى رموز كونية للكرامة الإنسانية. في هذه القصة الرمزية، تتحول معاناة الأسرى الفلسطينيين إلى أسطورة تُروى، وتصبح أغانيهم جرسًا يوقظ الضمير البشري أينما كان.

تحكي الأرض، وهي الجدة العتيقة التي لا تهرم، أن في قلبها واديًا عجيبًا اسمه وادي الصدى.

هناك، أقام الغزاة أقفاصًا من حديد أسود، ظانّين أن بإمكانهم أن يُسكتوا الطيور التي غنّت منذ أول فجرٍ عن الحرية.

لكن تلك الطيور لم تكن عادية؛ كانت أبناء الزيتون والبرتقال، ريشها مطرز بنداءات الأمهات، وعيونها تحمل وهج الشهداء.

كلما ضاق القفص، اتسعت صدورهم، وكلما سُلبت الأجنحة، ارتفعت الأغاني.

سأل الحراس بازدراء:

– ما فائدة الغناء خلف القضبان؟

فأجاب الجبل عنهم بصدى مدوٍّ:

– إن الأغاني تتحول إلى أنهار، والأنهار تذيب الحديد.

وفي الليل، حين يظن السجّان أن النوم قد أطفأ الأحلام، كانت الطيور ترسم بأظافرها نقوش العودة على الجدران: خريطة للديار، ومفاتيح للأبواب، وجملة واحدة لا تزول:

"الحرية قدر."

تعاقبت الأجيال، وتكسرت أقفاص كثيرة، لكن الطيور ظلّت تغنّي. وحين سُئل الجبل:

– متى تنتهي الحكاية؟

أجاب:

– حين يفهم آخر طفل أن هذه الطيور ليست سجينة، بل حارسة للنور.

ومنذ ذلك اليوم، يروي الناس أن كل قفص في وادي الصدى لم يكن مقبرة، بل منارة،

وأن أصوات الأسرى لم تكن مجرد أناشيد، بل جرس الحرية الذي لا يخفت،

بل يوقظ القرى، ويعيد للسماء لونها الأول.

الغريب الذي يبيع الظلال

في مساء رمادي من شتاء لم يكتمل، ظهر رجل غريب في ساحة المدينة، يحمل حقيبة سوداء صغيرة. لم يعرف أحد من أين جاء، لكنّ همسه سبق خطواته. كان يقترب من الناس ويعرض عليهم شيئًا لم يُعرض من قبل: ظلال جديدة.

"ظلكم متعب،" كان يقول، "دعوني أستبدله لكم بظلٍ آخر. ظل أطول، أبهى، يليق بأحلامكم."

ضحك بعضهم وسخر، لكن آخرين مدّوا أيديهم، واشتروا. في اليوم التالي، تغيّرت ملامح المدينة:

رجلٌ قصير بات يمتلك ظلًا عملاقًا يسبق خطواته في الشوارع، فيظنه الناس أكثر عظمة مما هو عليه.

امرأة نحيلة حملت ظلًا ممتلئًا، فتبعها المعجبون كأنها ملكة.

شاب بائس اشترى ظلًا يضحك، بينما وجهه ظلّ حزينًا.

لم تمضِ أيام حتى غدت المدينة غريبة، كل إنسان يحمل ظلًا لا يشبهه. ضاعت الحقيقة في الزحام.

لكنني كنت أراقب. اقتربتُ من الغريب وسألته:

– "كم ثمن ظلي؟"

ابتسم وقال: "ظلك مختلف، هو آخر ما أملك في حقيبتي. إن بعته لك، ستبقين بلا ظل."

ارتجفت. شعرت أنني لو بعت ظلي، سأختفي. تراجعت. وحين هممت بالرحيل، رأيت الغريب يغلق حقيبته ويذوب في العتمة.

في الصباح، كانت المدينة بلا ظلال. الناس يمرّون في الشوارع كأنهم أشباح. وحدي ظلّ لي ظلّ. أدركت حينها أنني لم أشترِ الوهم، ولم أبع نفسي.

ومن يومها، صار ظلي أغلى ما أملك. هو مرآتي، حارسي، وهو الشيء الوحيد الذي يثبت أنني ما زلت إنسانة حقيقية في مدينة باعت نفسها للزيف

دولة الفئران

في إحدى المدن البائسة، اجتمع الفئران في الساحة العامة وأعلنوا أنّ الوقت قد حان لتجربة الديمقراطية.

وقف الفأر الأكبر، وقد عقد ربطة عنق حمراء سرقها من بيت الجيران، وقال بصوتٍ جهوري:

– "من اليوم فصاعدًا، نحن أحرار. نختار قادتنا بالانتخاب."

صفّق الجميع حتى كادت مخالبهم تتكسّر.

جاء يوم الاقتراع، فترشح ثلاثة:

الأول فأر سمين يعدهم بقطع جبن يومية لكل بيت.

الثاني فأر نحيل وعدهم بتخفيض أسعار المصائد.

الثالث فأر أصلع صرخ: "أنا سأحوّل كل القطط إلى نباتيين!"

انفجر الجمع بالضحك والتصفيق، ففاز الأصلع بأغلبية ساحقة.

في اليوم الأول من حكمه، أعلن مرسومًا تاريخيًا: "على كل فأر أن يثبت ولاءه بالركض إلى فم القطة، ثم العودة سالمًا."

طُبّق المرسوم بحماس، واختفى نصف الشعب في بطون القطط.

وفي اليوم الثاني، قال الزعيم: "من أجل أمن الدولة، يجب أن نضع مصيدة في كل بيت."

احتج بعضهم، لكن سرعان ما وجدوا أنفسهم عالقين في أفخاخ حكومتهم.

وفي اليوم الثالث، خطب الزعيم قائلاً: "لقد تحوّلنا إلى أمة عظيمة، لم يبقَ بيننا إلا المخلصون!"

كان الجمهور قد تقلّص إلى حفنة من الفئران المرتجفة. ومع ذلك، صفقوا بحرارة، لأن التصفيق كان الوسيلة الوحيدة للنجاة.

وفي نهاية الأسبوع، التهمت القطة الزعيم نفسه، لكن أحدًا لم يجرؤ أن يعلن الخبر. فقد كُتب على جدار الساحة

"الزعيم لا يموت، بل يتحول إلى أسطورة."

وهكذا، استمرت دولة الفئران بلا فئران

انفصام

في مدينةٍ يسكنها صمتٌ كثيف، عاش رجل يُدعى سليم. كان الناس يرونه رجلاً واحدًا، لكن داخله كان يضجّ بأصوات متناحرة.

في الصباح، يستيقظ على وجهٍ باسمٍ يضيء كلّ من حوله، وفي المساء يخلع ابتسامته كما يخلع ثوبه المبتل، ويجلس معتمًا كقمرٍ مكسور.

كان يحمل في جيبه مرآتين صغيرتين:

واحدة تعكس صورته كما يريدها للناس؛ متماسكة، مطمئنة، واثقة.

وأخرى تعكس صورته كما يراها هو؛ متشظية، متكسّرة، كزجاجٍ سقط من علوّ شاهق.

كلّ مرآةٍ تدّعي أنها الحقيقة.

وكان سليم يتيه بينهما، لا يعرف أيّهما يصدّق: وجهه الذي يراه الآخرون، أم وجهه الذي ينزف في أعماقه.

ذات مساء، جلس على جسرٍ قديمٍ يربط ضفّتين متباعدتين. في الضفّة الأولى، عاش الناس مجتمعين يتحدثون لغة واحدة، وفي الضفّة الثانية، لم يكن أحد إلا ظلالًا تتجادل بلا توقف.

حين نظر أسفل الجسر، رأى النهر منقسمًا إلى مجريين متوازيين، كلاهما يتدفقان نحو البحر، لكن كل واحدٍ بلون مختلف.

فهم عندها أن انفصامه لم يكن مرضًا، بل كان مرآةً للكون نفسه: كل شيء مزدوج، كل شيء يحمل نقيضه في داخله.

النور لا يقوم إلا على الظلمة، والاتساق لا يولد إلا من الفوضى.

ابتسم أخيرًا، لا لأنه وجد الجواب، بل لأنه أدرك أن التمزق جزء من إنسانيته، وأن الوحدة المطلقة وهمٌ لا يسكن إلا عقول الآلهة.

ثم قام، ترك المرآتين على الجسر، وسار نحو البحر، حيث يلتقي النهران، لعلّه يجد هناك وجهًا واحدًا يكفيه

المواطن الحمار –

في بلادٍ يُوزن فيها العقل بالريش، ويُباع الضمير في المزاد، ويفوق ثمن الكرسي قيمة الإنسان، وُلد كائنٌ غريب اسمه: المواطن الحمار.

لم يكن حمارًا بالمعنى البيولوجي للكلمة، بل كان رمزًا لوعيٍ مسجون في جسدٍ لا يسمع منه الناس إلا نهيقًا، بينما كان عقله يعجّ بفلسفاتٍ لم يكتبها أحد.

المفارقة الأولى: الصندوق

عندما جاء يوم الانتخاب، حمل المواطن الحمار حلمه على ظهره، ومشى نحو الصندوق. وضع ورقةً بيضاء كتب عليها بدموعه: "أريد وطنًا لا يبيعني."

لكن حين فُتح الصندوق، تحولت الورقة إلى علفٍ، وزُرعت في أفواه الطغاة، الذين صرخوا بصوت واحد:

"لقد اخترنا الشعب!"

فأدرك المواطن الحمار أنّ الحرية ليست في الصندوق، بل في كسر خشبه.

المفارقة الثانية: اللغة

كان المواطن الحمار يتحدث بلغةٍ لا يفهمها أحد. البشر يترجمونها نهيقًا، أما هو فكان يسمعها شعراً وحكمة:

"أيها الناس، لا تحملوني فوق طاقتي، فالظهر الذي يئنّ ليس خشبةً، بل وطنٌ يمشي على قدمين."

لكن صوته ضاع بين ضجيج الأبواق الرسمية، فأصبح يردّد ساخرًا:

"عجيب أن يسموني غبيًا... وأنا الذي أحملهم جميعًا إلى مدارسهم وأسواقهم ومجالسهم!"

المفارقة الثالثة: الحلم

ليلاً، حلم المواطن الحمار أنّه تحوّل إلى إنسان. جلس على مقعدٍ برلماني فخم، وتكلم بكلمات رنانة لا تعني شيئًا. ثم خرج من القاعة ليقبض ثمن كذبته الأولى.

استيقظ فزعًا، وقال لنفسه:

"الحمد لله أنني حمار. أصدق في جرّ العربة أكثر من صدقهم في جرّ البلاد."

المفارقة الرابعة: الفلسفة

وقف المواطن الحمار أمام المرآة يوماً، وقال:

"يا نفسي... لستَ حمارًا كما يقولون، بل أنت الحكمة الصامتة. فأنت الذي تعلّم البشر الصبر، وأنت الذي تجرّ الحياة رغم أنفها، وأنت الذي تعرف أنّ من يركبك اليوم سيسقط غدًا حين ترفض أن تمشي."

الخاتمة: الانقلاب الصامت

وفي النهاية، لم يمت المواطن الحمار. بقي يسير في الشوارع، يسخر من نفسه ومنهم، لكن بابتسامةٍ عميقة كابتسامة سقراط وهو يشرب السمّ.

لقد فهم السر:

"أن تكون حمارًا واعيًا... خيرٌ من أن تكون إنسانًا بلا ضمير."

السكر الذي لا يذوب

لم يكن يوسف يتجاوز الخامسة والعشرين حين بدأ يشعر بالعطش الذي لا يروى، وجفاف الفم، وثقل الجسد. في البداية اعتقد أنّها مجرد إرهاق من العمل الليلي في المخبز، حيث كان يصنع الخبز للمدينة التي لا تنام. لكنه حين بدأ يفقد وزنه بسرعة ويستيقظ مرات عديدة في الليل ليشرب الماء، أدرك أنّ شيئًا ما يتآمر في داخله.

دخل العيادة، وهناك جاءه التشخيص الجارح: "أنت مريض سكري".

انكمش قلبه. لم يعرف إن كان الخوف من المرض نفسه أم من الكلمة التي ظلّت ترن في أذنه كحكم مؤبد.

التعايش مع الأرقام

منذ ذلك اليوم صار يوسف أسير الأرقام: رقم السكر صباحًا، رقم السكر بعد الأكل، وحدات الأنسولين، غرامات الكربوهيدرات. كان يظن أن الحياة رحلة مليئة بالحب والقصائد والخبز الساخن، لكنها تحولت إلى آلة حسابية باردة.

كان يضحك بمرارة ويقول:

"حتى ابتسامتي باتت تحتاج إلى قياس... أضحك بعد الطعام أو قبله؟ وهل الضحكة سترفع السكر أم تُنزلُه؟".

جسد يتحول إلى خريطة للوخز

ذراعه تحولت إلى خطوط أزرقية من كثرة الإبر. أصابعه فقدت حساسيتها من وخز جهاز القياس. ومع ذلك كان يتظاهر أمام عائلته بأن الأمر تحت السيطرة.

لم يرد أن يرى دموع أمه وهي تقول: "الله يشفيك يا ابني... صبر جميل والله المستعان".

الحب الذي أُطفئ فجأة

وقع في حب مريم، ابنة الجيران. كانت تراه وهو عائد من المخبز منهكًا، فتمد له فنجان قهوة بيد مرتجفة. أحبها لأنه شعر أنّها تفهمه بلا كلام. لكن حين تقدّم لخطبتها، همست أمه في أذنها:

"فكّري جيدًا، يوسف مريض سكري، والمرض وراثي... قد يحرمك من الأمومة أو يعجّل برحيله".

ترددت مريم، ثم انسحبت بصمت. لم يلومها، لكنه شعر أنّ المرض ليس في دمه فقط، بل صار وصمة تُطبع على جبينه.

النهاية الصادمة

في إحدى الليالي، بينما كان يوسف يعجن العجين ويُخرج الأرغفة الذهبية للزبائن، شعر بدوار شديد. عرق غزير سال من جبينه، وبدأ بصره يضطرب. لم يُسعفه أحد، فقد ظنه الجميع متعبًا كعادته. سقط بين الأرغفة الساخنة، ولم يستيقظ بعدها.

لكن المفاجأة لم تكن في موته... بل في التقرير الطبي:

يوسف لم يمت بسبب ارتفاع السكر... بل بسبب هبوط حاد في السكر نتيجة جرعة أنسولين زائدة.

لقد مات وهو يظن أنّه يحارب ارتفاعه، بينما كان عدوه الحقيقي في الاتجاه المعاكس.

المفارقة المريرة

تشيّع جنازته بدموع أهله وجيرانه، وقالت أمه وهي تبكي:

"قتله الدواء الذي كان يُفترض أن ينقذه!".

وهكذا، لم يكن السكري مجرد مرض يسرق الجسد ببطء... بل كان لغزًا يقتل أحيانًا من حيث لا نتوقع

الشيطان يضحك

منذ طفولتها، كانت ليلى غريبة عن محيطها. طفلة كثيرة الأسئلة، قليلة الضحك. في بيتها الصغير في أطراف المدينة، اعتادت أن تنام بجانب نافذة تتسرب منها الرياح والبرد. لم يكن أحد يلتفت إلى خوفها من الليل، إذ كان الكبار مشغولين بأثقالهم. تعلمت أن تكتم بكاءها، أن تبتسم حين يطلبون منها، وأن تقول "أنا بخير" حتى حين كانت روحها تنزف.

كانت تظن أن الوحدة مجرد قدر. لكنها لم تدرك أنها كانت تصنع في داخلها "ظلًا" ينمو بصمت. ظلٌّ يراقبها، يسجّل كل خوف وكل كذبة وكل خيانة صغيرة للنفس.

حين كبرت، صار جسدها حاضرًا في العالم، لكن روحها تائهة. درست، عملت، أحبّت، وخسرت. تعلّمت أن تُرضي الجميع إلا نفسها. وبين كل خسارة وأخرى، كان هناك صوت صغير يضحك في داخلها. لم تهتم به في البداية، لكنه مع الزمن صار أكثر وضوحًا.

ضحكة لم تكن بريئة، بل ساخرة، كأنها تقول: "ألم أقل لكِ؟ لا جدوى من محاولاتك."

كانت تسمعها وهي تقف أمام المرآة قبل مقابلة عمل فاشلة، أو حين تعود من لقاء حبٍّ انتهى بخيبة. حتى حين كانت تقرأ كتبًا عن التنمية البشرية والإيجابية، كانت تسمع الضحكة تزداد سخرية.

في إحدى الليالي، بعد يوم طويل من الخيبات، جلست ليلى أمام مرآتها الكبيرة. لم تعد تقوى على الهروب. أرادت أن تواجه ذلك الصوت. أطفأت كل الأنوار، وتركت شمعة واحدة تضيء الغرفة.

حدّقت في عينيها طويلًا، حتى شعرت بأن الزجاج يتحرك. فجأة، خرجت الضحكة من أعماق المرآة، مدوّية، لم تعد مجرد صدى بل كيانًا كاملًا.

قال لها الصوت:

"ألا تعرفين من أنا؟ أنا كل ما دفنتِه.

أنا تلك الطفلة التي لم يُسمع بكاؤها.

أنا الصبية التي كذبت لتنال رضاهم.

أنا المرأة التي تنازلت عن حقيقتها لتنال حبًّا زائفًا.

أنا الشيطان الذي لم يأتِ من الخارج... بل وُلد في داخلك."

انعكاسها في المرآة تغيّر: وجهها صار مشوّهًا، مشبعًا بالخطوط السوداء، يبتسم بسخرية. حاولت أن تصرخ، لكن صوتها خانها.

في اللحظة التالية، انطفأت الشمعة. ساد ظلام كثيف. شعرت بأن شيئًا يسحبها إلى داخل المرآة، حيث الضحكة تتكرر بلا توقف.

حين دخل أهلها في الصباح، وجدوا الغرفة باردة، والمرآة مشققة، خالية من أي انعكاس. ليلى لم تكن هناك.

ومنذ ذلك اليوم، كل من اقترب من تلك المرآة سمع الضحكة نفسها. البعض يقول إنها ضحكة شيطان، والبعض يقول إنها ضحكة ليلى ذاتها.

لكن الحقيقة الأعمق: الشيطان لم يخرج من المرآة قط، لأنه يسكن فينا جميعًا... نحن من نضحكه كلما خنّا ذواتنا.

المتجددين

في قلب مدينة تتكئ على كتف التاريخ، حيث الأزقة ضيقة كذاكرة عجوز، وحجارة البيوت تحفظ أصوات الذين مرّوا ورحلوا، كان هناك مقعد حجري عتيق، منسيّ المظهر، لكنه مشهور بين أهل الحي باسم "مقعد المتجددين".

لم يكن المقعد مجرد حجر محفور على شكل مقعد، بل كان أشبه بكائن حيّ يتنفس حكايات الجالسين عليه. كل من جلس فوقه شعر بأن الأرض تحت قدميه ليست الأرض نفسها، وأن الزمن يتثاءب ببطء، وكأنما يفسح له طريقًا نحو حياة أخرى، حياة لم يعشها لكنه كان قادرًا على لمسها.

عجوز فقد أولاده في الحروب جلس عليه ذات صباح، وحين أغلق عينيه أخذ يروي قصة عن حفل ميلاد ضخم في بيتٍ يفيض بالضحكات. امرأة أمضت عمرها بين غسل الثياب وجدران المطبخ جلست عليه، لتبدأ بسرد رحلاتها في مدن الثلج، تتحدث عن أنهار متجمدة ورقص في ساحات مفتوحة، وكأنها عاشت هناك عمرًا كاملاً. شاب لم يخرج يومًا من حارته جلس بدوره، وراح يصف طرقات مدن بعيدة بلهجة العارف، يذكر أسماء أنهار وحدائق لم يسمع بها أحد من قبل.

كان الحاضرون يبتسمون، يظنونها مبالغات أو خيالات، لكن المقعد كان يعرف الحقيقة: تلك ليست قصصًا مبتكرة، بل حيوات موازية تسكن أرواحهم، يطلقها المقعد لوهلة كي يتجددوا، ثم يعيدهم إلى يومهم العادي، وقد خفّ حملهم.

ومع مرور الأعوام، صار المقعد رمزًا خفيًا لمقاومة الفناء، وكأن الجلوس عليه إعلان ضمني أن الروح أوسع من جسدها، وأن العمر ليس خطًا واحدًا بل ألوان متشابكة. حتى جاء يوم قرر فيه موظف البلدية إزالته بحجة "التطوير الحضري".

لكن حين جاء العمال، وجدوا أهل المدينة مصطفّين حوله كالسور، يلمسون حجارته كما لو كانوا يحتمون بحرارة قلب، ويرفضون استبداله بمقاعد معدنية باردة. قال أحدهم بصوت حاسم:

"يمكننا أن نعيش بلا حديقة، بلا نافورة، لكن لا يمكننا أن نعيش بلا مكان يمنحنا حياة ثانية."

ظل المقعد في مكانه، لا يشيخ إلا قليلًا، كأنه يتجدد مع كل حكاية، ومع كل روح تجلس فوقه وتغمض عينيها. ومنذ ذلك الحين، صار الغرباء إذا زاروا المدينة يبحثون عن "مقعد المتجددين"، علّهم يكتشفون أن للحياة أبوابًا أخرى... لا تُفتح إلا بالحلم، وأن بعض الجراح لا تُشفى إلا بأن نحيا مرة أخرى، ولو في الخيال.

حين مات الإنسان... وأوفى الكلب: وصمة عار القرية

في قرية بعيدة لا يذكرها أحد، عاش رجل مسن يُدعى أندريه، لا يملك من الدنيا سوى كوخ خشبي مهترئ وكلب أشعث اسمه أرغو. لم يكن الكلب مجرد حارس ولا مجرد رفيق، بل كان ظلّه، أنفاسه الممتدة، ورفيقه في عزلة لا يسمع صداها أحد.

الفقر أحاط بالعجوز، والنسيان ابتلعه، لكن أرغو كان يبدّد قسوة العالم بنظراته الصافية، يحرسه نهارًا وليلاً. في السوق كان يسبقه بخطوات خفيفة، وفي الطريق يجلس عند قدميه، وحين ينهكه المرض يمدد جسده قرب صدره كأنه ينسجم مع دقات قلبه. أما أهل القرية فكانوا يسخرون ببرود: "لو مات العجوز، لكان هذا الكلب أول من يفر." ولم يعلموا أن بين الاثنين عهدًا أعمق من أن يُفهم.

حين جاء الشتاء بعواصفه، اشتد المرض على أندريه، حتى صار عاجزًا عن القيام. خرج أرغو في الصباحات القاسية، يركض بين الأزقة، يجرّ أثواب المارة، ينبح عند الأبواب، كأنه يتوسل بلغة لا يفقهها إلا قلب مخلص: "سيدي يحتضر... ساعدوه!" لكن الناس أعرضوا، حسبوه يبحث عن فتات خبز، ولم يدركوا أنه يطلب رحمة.

رحل أندريه في صمت، دون وداع أو شاهد. جلس الكلب بجواره لا يأكل ولا يشرب، يحدّق في ملامحه كمن ينتظر يقظة من غياب طويل. ثلاثة أيام كاملة ظل يحرسه كأن الموت نفسه لا يجرؤ أن يقترب. وحين دخل بعض الجيران الكوخ، ارتجفوا أمام مشهد لا يُمحى: أندريه ممدد بلا حراك، وأرغو فوق صدره، جثة باردة.

لكن النهاية حملت الصدمة الكبرى. حين فحص الطبيب الكلب، وجد في معدته بقايا طعام فاسد كان بجانب الموقد. لقد ابتلعه أرغو ليبعده عن سيده المريض، آثر أن يموت هو ليحيا صاحبه، غير مدرك أن العجوز كان قد سبق وغادر.

ارتجّت القرية بالندم. من سخروا صمتوا، ومن أعرضوا انحنت رؤوسهم. أدركوا متأخرين أن الكائن الذي حسبوه أدنى منهم كان أرقى من قلوبهم جميعًا، وأن الوفاء لا يُقاس بالعقل ولا بالمنطق، بل بالقدرة على أن تموت من أجل من تحب.

منذ ذلك اليوم بقي اسم أرغو حيًّا، بينما بقيت القرية موسومة بالخزي: وصمة لا يمحوها الزمن، ولا يخففها النسيان. فقد أثبت كلب واحد أن الخيانة مرض بشري، وأن الوفاء معجزة لا يعرفها إلا من لم يتعلم الكذب.

وكأن أرغو همس للعالم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة:

"الوفاء ليس فعلًا نتعلمه، بل جوهر نولد به. موتي لم يكن نهاية، بل مرآة لأرواحكم أنتم. فابحثوا في قلوبكم، فإن لم تجدوا فيها صدقًا يشبه صدقي، فأنتم الأموات لا أنا.

في الطريق إلى الجنة

كانت السماء في ذلك الصباح أقرب إلى لون الرماد، كأنها تعرف ما تخبئه لعائشة. سارت وحدها في الطريق الضيق المؤدي إلى المقبرة، حافية القدمين، لا لأنها نسيت حذاءها، بل لأنها شعرت أن التراب يحنّ لخطواتها.

منذ رحيل سامر، لم تعد تعرف الفرق بين النوم واليقظة. كان وجهه يزورها في أحلامها، لكنه لا يبتسم... فقط ينظر إليها بعينين تشبهان الأفق البعيد.

في منتصف الطريق، عند شجرة سدر وحيدة، وجدت طفلة ترتدي فستانًا رماديًا، تمسك بيدها ورقة جافة، تنظر إليها دون أن ترمش.

سألتها عائشة:

"هل ضللتِ الطريق يا صغيرتي؟"

أجابت الطفلة بصوت مبحوح:

"أنا الطريق".

تراجعت عائشة خطوة، لكن الطفلة اقتربت، وضعت الورقة في يدها وهمست:

"قال لي... إنكِ ستأتين اليوم، وإنكِ لن تعودي".

ارتعشت أصابع عائشة، وعندما فتحت الورقة، لم تجد سوى كلمة واحدة مكتوبة بخط سامر: "انتظرتك".

أكملت سيرها مرتبكة، حتى وصلت إلى قبره. لم يكن هناك شاهد قبر، ولا تراب مبلل... فقط بركة ماء صافية تعكس السماء. وعندما انحنت لترى وجهها، رأت وجه سامر يبتسم، ويمد لها يده.

في تلك اللحظة، شعرت ببرودة الماء تغمر كاحليها، ثم ركبتيها، ثم صدرها... ولم تقاوم.

في اليوم التالي، جاء حارس المقبرة، فوجد بجوار شجرة السدر وردة رمادية غريبة، لم ير مثلها من قبل. أما القبر، فبقي كما كان... بلا شاهد، وبلا اسم

القاتلة

حين يصبح القتل فعلًا صامتًا يسكن الأرواح قبل الأجساد

لم تكن القاتلة تحمل سلاحًا، ولم يسبق أن شوهدت في مسرح جريمة. كانت تدخل الأمكنة على مهل، كظلّ خفيف يمرّ على الجدران، وتغادر وهي تترك وراءها شيئًا لا يُرى ولا يُسمع، لكنه يلتصق بالروح حتى يثقلها.

كانت تعرف كيف تُخفي مخالبها في قفاز من حرير. تبتسم للحزين ابتسامة تُشبه المواساة، وتربت على كتف المنكسر بلمسة تظنها دفء، لكنك بعد أيام تبدأ تشعر ببرودة غامضة تتسلل إلى قلبك. كلماتها لا تجرحك في اللحظة، لكنها تعمل فيك ببطء، مثل سمّ يذوب في كأس ماء شفاف.

في البلدة الصغيرة، لم يشكّ أحد في نواياها. كانت حاضرة في كل عزاء، وفي الصفوف الأولى من حفلات الزواج، وفي اجتماعات الخير. لم يكن أحد يتساءل لماذا يذبل الذين تقترب منهم، ولماذا تتلاشى ملامح الفرح من وجوههم بعد أسابيع من لقائها.

كنتُ الوحيد الذي رأى الخيط الخفيّ الذي يربط اختفاء البهجة بظهورها. ومع ذلك، لم أملك برهانًا. حتى جاء ذلك المساء الذي جلست فيه أمامي في المقهى، وقالت بصوت هادئ وكأنها تروي حكمة قديمة:

"ليس كل موت يحتاج قبرًا... أحيانًا نموت ونحن نضحك."

منذ تلك الليلة، شعرت أن شيئًا في داخلي يتفكك. لم أعد أرى الألوان كما كانت، ولم أعد أسمع الضحكات بذات النقاء. وبعد أسابيع، وقفت أمام المرآة أبحث عن ملامح وجهي فلم أجد سوى ظلّي.

حينها فهمت الحقيقة المروّعة...

القاتلة لا تقتل الأجساد، بل تحترف قتل الأرواح، وتتركك تمشي على الأرض حيًّا لكن بلا حياة.

العودة

في سنة لا تقيسها الساعات، عند حافة الألفية الرابعة، كان الزمن قد فقد معناه القديم، وصار يُقاس بعدد النسيانات التي أصابت البشر. المدن أصبحت عائمة في فضاء من ضوء، والخرائط طُويت كأوراق قديمة، إلا خريطة واحدة... خريطة محفورة في وجدان أرواح لا تعرف الفناء.

في أرشيف كوني اسمه الذاكرة الأولى، كانت الأرواح التي هُجّرت عام 1948 ما زالت تحيا، محفوظة كقصائد لم تُقرأ بعد. هناك، كان الحكيم جورج حبش يجلس تحت شجرة زيتون لا ظل لها، يكتب على ورق من ضوء:

"الوطن فكرة... والفكرة إن نجت من النسيان، تعود."

لم يكن أحد يعرف إن كنا أحياء أم أموات. كنا نرى صور البيوت التي هُدمت، ونسمع خطى الفارين على طرق لا تنتهي، ونشم رائحة قمح أُحرق قبل الحصاد. كل ذلك لم يكن في الماضي، بل في الحاضر، في المستقبل، في زمن بلا فواصل.

في ذلك اليوم، ظهرت فجوة في نسيج الضوء، أشبه بجرح قديم فُتح من جديد. قال لنا الحكيم:

"هذه ليست طريقًا... هذه ذاكرة تبحث عن جسد."

عبرنا الفجوة، وعدنا أجسادًا من لحم ودم. لكن الأرض لم تكن كما تركناها، ولا نحن كنا كما كنّا. الزيتون أكبر، لكن ظله أقصر. البحر أوسع، لكن موجه أكثر صمتًا. ورغم ذلك، كل حجر في الطرقات كان يعرف أسماءنا.

لم ندخل إلى البيوت... البيوت هي التي دخلت فينا. لم نمشِ على الأرض... الأرض هي التي مشت إلينا. فهمنا عندها أن العودة ليست رجوعًا إلى مكان، بل عودة المعنى إلى الروح.

في المساء، جلس الحكيم بيننا، صامتًا، حتى أضاء القنديل الأول. ثم همس بصوت يكاد لا يُسمع:

"في سنة 3000، لم نرجع إلى الوطن... الوطن هو الذي عاد إلينا."

سجائر

لم تكن السيجارة التي أشعلها صباحًا مجرّد لفافة تبغ، بل كانت طقسًا يوميًا يوقّع به على بداية نهار جديد، كأنه عقد مع الحياة... أو ربما استسلام لها.

يجلس على كرسيه الخشبي المتهالك قرب النافذة، يراقب دخانها وهو يتلوّى في الهواء، كأفعى تبحث عن مخرج من قفص زجاجي. كان يرى في ذلك الدخان صورة روحه؛ تتصاعد حرة للحظة، ثم تتلاشى في فضاء لا يرحم.

قالت له يوماً جارته العجوز، وهي تمسح على خد حفيدها:

"السجائر تقتلك ببطء."

ابتسم ولم يرد، فهو يعرف أن هناك ما يقتله أسرع من النيكوتين... اسمه الانتظار.

كان ينتظر رسالة لم تصل، واعتذارًا لم يُكتب، ووجوهًا غابت خلف حدود مغلقة. كل سيجارة كانت جسراً نحو ذكرى، أو قاربًا يطفو فوق بحر الوحدة.

السيجارة الأولى في الصباح تحكي عن الشباب الذي ضاع، والثانية بعد الظهر تروي قصة الثورة التي لم تكتمل، أما الثالثة في الليل فهي اعتراف صامت بأنه لم يعد يملك ما يخسره.

في أحد الأيام، بينما كان يشعل سيجارته العاشرة، شعر بطَرقٍ على الباب. نهض ببطء، فتح، فوجد صبيًا يمدّ له ظرفًا أبيض.

قرأ الإسم على الظرف... كان اسمه. فتحه، فوجد بداخله ورقة قصيرة:

"لقد أُغلقت الدائرة... انتهى الأمر."

جلس، أشعل سيجارة جديدة، ولم ينتبه أن أصابعه ترتجف.

وفي اللحظة التي انطفأت فيها آخر جمرة حمراء، سقط هو أيضًا، تمامًا كما سقطت سيجارته، ممدّدًا على الأرض، والدخان يتصاعد من صدره الأخير

حين مشت العكازات

لم تكن ليان تعرف أن صباحًا عاديًا يمكن أن يحمل انقلابًا في روحها.

كانت تخطو مسرعة نحو عملها، تتفادى برك المطر، وعيناها غارقتان في شاشة الهاتف، حين دوّى صوت ارتطام معدني بالأرض، أعقبه صرير عجلات. رفعت رأسها، فإذا بشاب على كرسي متحرك يحاول صعود منحدر صغير، فيما تناثرت أوراقه في الوحل، والمطر يلطّخ يديه وعجلاته.

انحنت تجمع الأوراق واحدة تلو الأخرى، ثم ناولته إياها بابتسامة. شكرها بصوت هادئ، غير أن عينيه كانتا تشعّان بوميض عناد لا تخطئه العين. جلست بجانبه على الرصيف وسألته إن كان يحتاج أن تدفع كرسيه. ابتسم قائلاً:

"لسنا بحاجة لمن يحملنا... فقط سيروا معنا، واجعلوا الطريق يسعنا كما يسعكم."

كانت جملة قصيرة، لكنها اخترقت قلبها كالسهم، فصارت ترى ما كانت تغفل عنه: الأرصفة المكسورة، السلالم بلا منحدرات، الأبواب الضيقة التي تمنع مرور العكازات، والعيون التي تلتفت فضولاً أو شفقة.

بعد أسابيع، وفي ساحة عامة، سمعت صوته من جديد. كان وسط دائرة من الأطفال، يحكي لهم حكاية "عصفور مكسور الجناح" تعلّم الطيران بطريقة مختلفة. وحين انتهت القصة، ضجّت الساحة بتصفيق صغير أيقظ دفئًا في قلبها.

اقتربت منه، وقدّمت له كوب قهوة ساخن، وسألته إن كان يفكر بنشر قصصه. ابتسم قائلاً:

"هذه ليست قصتي، أنا أكتبها لصديق عاشها."

وأشار بيده نحو طرف الساحة، حيث كان يقف رجل طويل القامة، أنيق، يستند إلى عكازين خشبيين، ووجهه مغطى بضمادة بيضاء على عين واحدة. اقترب الرجل بخطوات واثقة، وحين صار أمامها، قال بصوت متين:

“أنا العصفور الذي حدثك عنه... لكن جناحي لم يكن الجسد، بل كان الأمان. وحين فقدته، تعلمت الطيران من جديد.”

تجمدت ليان، فقد كان هذا الرجل والدها الذي اختفى منذ خمسة عشر عامًا، تاركًا وراءه طفلة تبحث عنه في ملامح الغرباء.

في تلك اللحظة، أدركت أن العكازات ليست حكرًا على من كسرتهم الحوادث، بل على كل من كسرتهم الحياة... وأن بعض الإعاقات لا تراها العيون حتى تكشفها الصدف

شهيدة وطن

لم تكن تحمل سلاحًا.

لم تكن ترتدي كوفية، ولا ترفع شعارات.

كانت تحمل حقيبة صغيرة، وحلمًا أكبر من المسافة بين قريتها وسور السجن.

اسمها “ميس الريان”.

طالبة جامعية عادية، تشبه شجر التين حين يخضرُّ رغم الحصار، وتحب الزعتر أكثر من الحب.

هادئة، لكن في عينيها نارٌ تعرف كيف تنتظر.

كانت تكتب رسائل إلى نفسها، تخبّئها في علبة معدنية خلف الدار،

كل رسالة تبدأ بجملة واحدة تكرّرها كتعويذة:

“أنا لست خائفة، لكنني وحدي.”

في صباح الأربعاء، دخل الجنود القرية.

كسروا البيوت والمرايا والأمان.

أوقفوها في طريقها إلى الجامعة.

فتشوا حقيبتها.

وجدوا كتابًا في “الهوية الفلسطينية”، ومنديلًا مطرزًا بخيوط أمها.

ضحك الجندي وسألها بازدراء:

– “أين السلاح؟”

قالت له بثبات:

– “هويتي وحدها تكفي لتخيفك.”

ألقوا القبض عليها.

وفي التحقيق...

سألوها عن الشباب، عن الأسماء، عن المقاومين.

أجابتهم بهدوء يشبه النصل:

"كل واحد منهم، يحمل الله على كتفه."

فأطلقوا عليها لقب "المجنونة".

مرت شهور من العتمة والعذاب.

لم تعترف.

لم تنهار.

لم تتراجع.

وفي ليلة ماطرة، أُخرجت من الزنزانة للتنظيف.

اقترب منها جندي شاب، لم تره من قبل.

قال لها همسًا:

– "ليش ما بتستسلمي؟"

أجابت كمن يلقي وصيته الأخيرة:

– "أنا الوطن... والوطن لا يتراجع، بل يُؤخذ أو يُستشهد."

تجمّد.

أخرج قطعة شوكولاتة من جيبه.

ناولها إياها، ثم همس:

– "أنا ياسر... ابن عمك."

شهقت.

كان آخر عهدها به طفلة في العاشرة، قبل أن يهاجر بلا وداع.

قال:

– "أنا عميل. نادم. سأهربك الليلة. فقط لا تموتي."

وهزت رأسها دون أن تجيب.

في الفجر، عُثر على جثتين قرب السور:

جندي مقتول،

وفتاة فلسطينية مشوهة الوجه،

وبجوارها ورقة مبلّلة بالدم والمطر، كُتب عليها:

"أنا لست خائفة، لكنني وحدي... وهذه وحدتي ثمنها حرية وطن."

أعلن الاحتلال أنها انتحرت.

لكن الحقيقة؟

دفنت معها جثة فتاة أخرى كانت قد ماتت تحت التعذيب.

ميس؟

لم تمت.

غيّرت وجهها، واسمها، وهويتها،

وغادرت البلاد في شتاتٍ جديد.

في أوروبا، أصبحت شاعرة تُدعى "ريّا"،

تكتب عن "ميس" وكأنها امرأة أخرى، بطلة، أسطورة، شهيدة.

وكل قصائدها تبدأ بالجملة ذاتها:

"أنا لست خائفة، لكنني وحدي."

وحين سُئلت في أحد المهرجانات الأدبية عن مصدر الإلهام،

قالت:

"ميس ليست شهيدة فقط...

بل وطن استُشهد وقرر أن يُبعث من جديد في جسدي."

حب على الحاجز

لم يكن صباحًا عاديًا في الضفة الغربية.

كان الهواء مشبعًا برائحة التوت البريّ المندثر على حجارة الطرقات القديمة، ومعه امتزجت رائحة البارود والقلق. على الحاجز رقم ٣١، حيث ينقسم الوقت بين انتظارٍ قاتلٍ ونظراتٍ مشككة، التقت عيناها بعينيه.

هي كانت تعبر كل يوم من بيت لحم إلى القدس للعمل في مدرسة للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، حاملة ملفات ورسومات وسندويشات ملفوفة بورق الجرائد، وفي قلبها طنينٌ دائمٌ:

هل سأعود اليوم؟

أما هو، فكان جنديًا، ببدلة لا تشبه قلبه، يقف هناك منذ ثلاثة أشهر، لا يعرف لماذا، ولا لمن. عيناه خضراوان بلون شجرة زيتون قديمة، ويده تلامس بندقية أطول منه عمرًا. لم يكن يشبه الصورة التي ترسمها الرواية، ولا السيناريوهات الجاهزة. كان ضائعًا مثلها، وإن بدا مسيطرًا.

البداية كانت عادية. نظرة. عبور. تفتيش.

لكن شيئًا ما حدث، شيئًا لم تتعلّمه في كتب التربية، ولا هو في كتيبات الأمن.

في اليوم الأول، طلب منها بطاقة الهوية بلهجة غليظة.

في اليوم الثاني، لاحظ أن إصبعها ملفوف بشاش أبيض وسألها: "هل تؤلمك؟"

في اليوم الخامس، قالت له: "إن كنت تبحث عن متفجرات، ففتش قلبي... فيه ما قد يزلزل دولتك."

ابتسم.

ثم كره ابتسامته.

كان الحاجز يتآكل ببطء.

لم تعد الحجارة فقط ما يفصل بينهما، بل كل ما مثّله كلٌ منهما.

هي الوطن المسلوب،

وهو، ربما، الروح المسلوبة.

في الليل، كانت تفكر فيه: كيف لجندي أن يسأل عن إصبعها؟

وفي الليل، كان يفكر فيها: كيف لمعلمة أن تبتسم وهي تمشي وسط البنادق؟

لم يكن حبًا كما في الأفلام.

كان سؤالًا.

جراحًا في العقل، لا في الجسد.

صرخةً وجودية تقول: من أنا؟

ولمن أنتمي؟

هل يمكن للإنسان أن يحب عدوه؟

وهل يمكن للعدو أن يبكي إن فُجّرت ضحكتك؟

في اليوم الستين، لم تأتِ.

وقف عند الحاجز.

سأل باقي الجنود: هل رآها أحد؟

ضحكوا منه.

لكنه لم يضحك.

مرّت الأيام، ولم تأتِ.

وفي ليلةٍ ممطرة، جاءه طفل صغير، يحمل ظرفًا.

فتح الظرف وقرأ:

"أيها الغريب،

كنتُ أعبر الحاجز،

لكنني فيك، كنتُ أبحث عن طريق.

لم أعد.

لا لأنني خائفة، بل لأنني وجدتك...

ولم أعد أحتاج إلى الجهة الأخرى."

مضى عام.

لم يعد جنديًا.

ترك البندقية في الزاوية، واشترى دفترًا.

كتب فيه: "أحيانًا...

يقف الحب على الحاجز،

بين خوفين، بين وطنين،

فيختار أن لا ينتمي، إلا للدهشة."

الراهب الطيب صانع المعجزات

في زاويةٍ منسية من الجليل، حيث تعانق الجبال السماء وتصمت الأشجار بخشوعٍ أبدي، كان هناك دير صغير يلوذ به الحزانى. وفي ذلك الدير عاش راهبٌ طيب اسمه الأب إيليّا، رجل هادئ كالماء، نقي كالصلاة، تجاوز الثمانين لكنه لم يشيخ أبدًا في عيني من عرفوه.

لم يكن الأب إيليّا صانع معجزات كما يتخيلها الناس. لم يُشْفِ العميان، ولم يمشِ على الماء، لكنه كان يصنع الأعجوبة الأصدق: أن يُعيد للإنسان إنسانيته، أن يربت على وجع الروح بكفٍّ من نور.

كان يستقبل الغرباء، لا يسألهم عن دينهم أو ماضيهم أو جنونهم، فقط يسأل:

"هل أتيت جائعًا؟ هل قلبك مكسور؟ هل روحك مرهقة؟"

وذات صباحٍ بارد، طرق باب الدير طفلٌ مجهول، حافي القدمين، صامت العينين، جسده هزيل وروحه خافتة. لم يتكلّم، فقط أشار إلى صدره، وكأنه يقول: "هنا... حيث يؤلمني كل شيء".

أخذه الأب إيليّا بذراعيه النحيلتين، وقال له:

"هنا ستشفى... دون دواء، فقط بالمحبة."

سمّاه "نور"، وكان كلما رآه يبتسم، يقول للزائرين:

"أحيانًا لا نحتاج إلى معرفة الأسماء التي أعطتنا إياها الحياة، بل إلى الأسماء التي تُولدنا من جديد."

كان نور يصمت كثيرًا، لكنه تعلّم من الراهب كيف يتهجّى لغة الصمت: أن يصغي إلى طقطقة الحطب، وأن يقرأ الصلوات في حفيف الأشجار، وأن يبتسم عندما تبكي السماء.

وذات يوم سألته امرأة:

– ما الذي فعله لك الأب إيليّا حتى شُفيت؟

فأجاب:

– لم يفعل شيئًا... فقط رآني.

**

حين اجتاحت الفيضانات القرى المجاورة، فتح الراهب الطيب أبواب ديره لكل لاجئ، صنع الحساء، قسم الخبز، ونام على الأرض. لم يكن يفعل ذلك ليُقال عنه "قديس"، بل لأنه كان يؤمن أن من يملك محبةً صافية، يملك الله.

وعندما سأله أحدهم في ليلةٍ باردة:

– هل تعتقد أن الله يراك؟

ابتسم، ثم قال:

– لا أعرف... لكنني أحاول أن أراه في كلّ واحدٍ منكم.

**

رحل الأب إيليّا ذات مساءٍ شفيف، كما ترحل النسائم من غير وداع. وجدوه جالسًا قرب الشمعة، عيناه مغمضتان، وابتسامة سلامٍ على شفتيه. لم يخلف وراءه ثروات، بل أثرًا شفيفًا في قلوب من عرفوه، وأعجوبة صغيرة اسمها: نور.

واليوم، ما زال الأطفال يأتون إلى الدير، يزرعون الأعشاب، يقرأون الصلوات على الجدران، ويهمسون أمام قبره:

"هنا يرقد الراهب الطيب... الذي لم يصنع إلا معجزة واحدة: أنه أحبّنا كما نحن."

وصمة الدم... لا الطُهر

لم تكن نائمة، بل كانت تحلم.

تحلم بفستان أرجوانيّ اللون، يُرفرف في ساحة المدرسة...

تحلم بصديقتها وهي تضحك تحت شجرة الجميز...

تحلم بأن تكبر، بأن تكتب، بأن تصير شيئًا له معنى في هذا العالم.

لكنهم لم يمهلوها.

في ليلةٍ بلا قمر، وعلى سرير طفولتها، تسلّلوا إلى غرفتها كما تتسلّل الذئاب إلى حظيرة الضعف...

ذبحوها بهدوء، كما تُذبح الخراف.

غسلوا أيديهم بالدم، وغطّوا وجهها الصغير بقطعة قماش...

وقالوا إنها ماتت دفاعًا عن شرفهم.

كان اسمها أريج،

وكان عمرها خمسة عشر ربيعًا،

وكانت، ببساطة، تحب الحياة.

في صبيحة الجريمة، كانت أمّها تصرخ على عتبة البيت:

– قتلوك يا أريج، وقتلوني معك...

لكنّي لن أصمت، لن أضعف، لن أغفر.

ضمّتها صديقتها القديمة، قالت لها:

– دم أريج لن يضيع، أقسم لك.

هذه البلاد، وإن تواطأت، لا تنسى الوجوه المذبوحة.

جلس الأب في زاوية البيت، مكسور الظهر، لا يقوى على الكلام.

كان يتمتم بين فواصل البكاء:

– لم تُقتل ابنتي من أجل الشرف...

بل قتلها الجهل، والتسلّط، وقتلها أنصاف الرجال الذين نصّبوا أنفسهم أوصياء على السماء.

قتلها من ظنّ أن الرجولة تُقاس بسلطة السكين.

في اليوم التالي، عمّت الإشاعات البلاد كما تعمّ العاصفة حقول القمح:

قالوا إنها كانت ترقص في شرم الشيخ...

قالوا إنها خُلعت الحجاب...

قالوا إنها وضعت حلقة في سرتها، وإنها تُحب شابًا روسيًا، وإنها تفضّل اليهود على العرب...

لكن أريج، ببساطة، لم تكن تملك جواز سفر.

ولم يكن في صدرها غير وجع المراهقة، وأسئلتها الصغيرة.

بعد يومين، ظهرت نتيجة التشريح الطبيّ:

أريج كانت عذراء.

جسدها نقيّ.

لا حلق على سرتها، لا وشم، لا عار...

لكن من قال إن الطهارة تُقاس بالجسد؟

من يعيد لأريج حياتها، الآن وقد قُتلت مرتين:

مرّة بالسكين،

ومرّة بالافتراء.

وقفت أمها، للمرة الأولى، في وجه عائلتها.

اتهمت شقيقها – خال أريج – بالتحريض.

شهدت ضد أهلها.

صرخت:

– الشرطة كانت تعلم... وتخاذلت.

– الشرف الحقيقي أن نحمي بناتنا، لا أن ندفنهنّ بأيدينا.

سارت إلى الجمعيات النسويّة.

طرقت الأبواب.

رفعت صورة ابنتها في المظاهرات.

تحدّثت عن صوتها، عن دفاترها، عن حلمها بأن تصير معلّمة يومًا ما.

انفتح التحقيق من جديد، وبدأت الحقيقة تتقشّر كجلدٍ متعفّن:

الجناة اعترفوا، وصرّحوا بندمهم:

– صدّقنا الإشاعات،

– اغتالنا الخوف من العار،

– خُدعنا بكلام النساء اللواتي يبرّرن القتل باسم الله.

لكن الأكثر فظاعة...

أن امرأةً من بين من حرّضن على قتل أريج، وقفت بوجه مكشوف، وقالت:

– أريج بريئة، نعم...

لكن من سبقنها كنّ يستحقن الموت.

فالمرأة ناقصة عقل ودين، ومكانها في البيت.

أيّ بيتٍ هذا؟

وأيّ دينٍ ذاك؟

الذي يسمح أن تُسفك دماء الورد،

أن يُذبح القمر،

أن يُذبح الحلم...

ويُقال بعدها "الحمد لله الذي طهّر العائلة من العار".

ماتت أريج، لكن القصيدة لم تمت.

ماتت أريج، لكنها صارت سؤالًا معلّقًا في السماء:

– إلى متى سنذبح بناتنا... ونقول: باسم الله؟

حين يخنقون الورد

في هذه الأرض، يولد بعض الحب مثل زهرة برية، تنبت رغم الحجارة، وتفتن العابرين برائحتها، لكنها تبقى مهددة دائمًا بيدٍ غليظة تقطفها قبل أن يكتمل عطرها. هذه الحكاية ليست عن موت جسد، بل عن اغتيال روح... عن حرب يشنها المجتمع على قلبٍ أحبّ، وعن وردة لم تُمنح فرصة أن تتفتح.

كان واقفًا أمامي، عيناه زجاجيتان، نظراته شاردة، وجسده يرتجف كغصن في مهب الريح. لم أصدق أن هذا هو "علي" الذي عرفته يومًا... الشاب المثقف الحالم، صاحب الابتسامة التي كانت تسبق حضوره، وصوت الضحكة التي كانت تملأ المكان حياة. الآن، بدا كأنه هيكل فارغ، جسد يمشي بلا روح، بعد أن ابتلعه مستنقع المخدرات، وصار يرى الدنيا من وراء ستار من العتمة.

لم تكن الهزيمة وليدة يوم أو شهر، بل كانت جرحًا بدأ يوم غابت "فريدة" عن الدنيا. هي... الحبيبة والخطيبة والصديقة التي وحدها استطاعت أن تلمّ شتاته وتقرأ صمته. كانت ملاذه الأخير، تعرف لغة جروحه قبل أن تنطق بها شفتاه، وتحضنه كطفل ضائع في شوارع الغربة.

وُلدت هي على مشارف المأساة، إذ فقدت أمها وهي لم تكمل عشرة أيام من عمرها، في جريمة لم يُسأل عنها أحد، ولم يسجن أحد. كبرت يتيمة الحنان، منبوذة الشعور، كأنها ضيف ثقيل على الحياة. لكن كل ذلك تغيّر حين التقت بـ"علي"... أول من قال لها إنها تساوي الدنيا، وأول من أحبها بصدق، لا لشيء سوى أنها هي.

لكن العالم لم يحتمل هذا الحب.

في أحد المساءات، جلست فريدة أمامه في مقهى صغير عند طرف المدينة، المقهى الذي كان شاهدًا على أول اعتراف بالحب. كانت يداها ترتجفان وهي تروي له ما فعله أهلها: "قالوا لي إنك لا تليق بمستوانا، وإن حياتي معك ستكون خزيًا لهم... هددوني... يريدون أن يزوجوني لابن عمي... قالوا إنك فقير، عامل، بينما هم أصحاب القصور".

أمسك علي بيدها، نظر في عينيها بعمق، وقال بصوت مبحوح: "أنا لا أملك إلا قلبي، لكنه لكِ... ولكِ وحدك". ابتسمت رغم دموعها، وعرفت أن هذه اللحظة قد تكون الأخيرة.

صوت فريدة

كنت أعرف أنني أمشي نحو النهاية، لكنني لم أندم يومًا على اختياري. هم لا يفهمون أن الحب ليس حسابات بنكية ولا ألقابًا عائلية. كنت أعرف أن يدي التي أمسك بها علي أقوى من جدران قصورهم. ليلة موتي، لم أكن خائفة... الخوف الحقيقي كان أن أعيش حياة لا تشبهني، أن أستيقظ كل صباح بجانب رجل لا يسكن قلبي. اخترت أن أكون وفية للحب، حتى لو كان ثمنه حياتي. وحين أغمضت عيني، كان آخر ما رأيته وجه علي، يبتسم كما في اليوم الأول.

مرت أيام قليلة، قبل أن يأتيه الخبر كرصاصة في صدره: فريدة قُتلت. قالوا إنها حادث... لكن علي كان يعرف أن الحادث الحقيقي هو أن يُقتل الحلم لأنه تجرأ أن يولد. في جنازتها، وقف بعيدًا، لا يجرؤ أن يقترب من نعشها، يخشى أن ينكسر أمامهم. كانت السماء ملبدة، والمطر ينهمر كأنه يشارك قلبه البكاء.

ومنذ ذلك اليوم، لم يعد علي عليًّا. صار يسير في الشوارع يطارد ظلها، يراها عند ناصية الطريق، أو جالسة في المقعد الأخير من الحافلة، أو عابرة في الزحام. يمد يده ليقبض على طيفها، فلا يجد سوى الفراغ. والمخدرات، التي كانت ملاذه الأخير، صارت زنزانته الأبدية.

هذه ليست مجرد قصة حب، بل صرخة روح في وجه مجتمع يقتل المختلف، ويغتال البراءة باسم الشرف المزيّف، ويحاكم القلب لأنه أحب.

متوحدون ولكن

وُلد آدم في مدينةٍ يلتقي فيها الأذان مع الأجراس، وتتعانق فيها الحجارة القديمة مع ظلال الزيتون. كان صوته غائبًا، لكنّ صمته كان أوسع من كلّ اللغات. لم يكن ينظر إلى الوجوه، بل إلى الضوء حين ينكسر على الجدار كأنّه سرٌّ من أسرار الوجود.

كانت أمّه ليلى تحمله بين ذراعيها وتقول: "ابني لا يتكلّم." ثم تكتشف أنّه يتحدّث مع الأشياء: يلمس الزجاج، فيبتسم؛ يراقب المروحة، فيضحك فجأة، كأنّ الكون يبوح له بأسراره.

قال الطبيب: "إنّه يعيش في عالمه الخاص."

لكنّ ليلى سألت نفسها: ومن منّا لا يعيش في عالَمٍ خاص؟

الأب تاه بين العار والحبّ، بين نظرات الجيران ونداء قلبه. لكنه حين لامس ابنه كتفه الصغير، أدرك أنّ الأبوة ليست ما يقوله الناس، بل ما يصنعه القلب في اللحظة التي يختار فيها أن يظلّ حاضرًا.

وفي أمسيةٍ عادية، جلست سارة أمام البيانو. لم تكن تعزف لتُدهش، بل لتتنفّس. اقترب آدم، وجلس يرسم. بين النغم واللون، نشأت لغة جديدة. لم يفهمها الحاضرون، لكنّ أمّهاتهم ابتسمْنَ: الأطفال وجدوا طريقهم.

من هنا وُلد بيت الضوء: غرفةٌ صغيرة تحوّلت إلى وطن.

في الخارج، كانوا يقولون: "جمعوا المجانين بمكان واحد."

أما في الداخل، فقد كان الأطفال يعلّموننا درسًا أبديًا: أن الصمت موسيقى، وأن العزلة جسر، وأن الاختلاف طريق آخر للجمال.

في الأمسية الأولى للبيت، عُلّقت لوحات آدم: دوائر تفتح أبوابًا نحو سماءٍ مجهولة. عزفت سارة مقطوعتها: أجنحة في الصمت.

حين انتهت، وقف الناس وصفّقوا، كأنّهم صفقوا لقلوبهم هم.

في تلك اللحظة، رفعت سارة رأسها نحو العالم، وأضاءت عينا آدم كنافذتين مفتوحتين على الغد.

لم يكن ذلك نجاحًا صغيرًا، بل اعترافًا كبيرًا: أن الاختلاف ليس جدارًا، بل نافذة، وأن الحبّ حين يجد صدى لصمته، لا يحتاج إلى تفسير.

عطش الرمال

لم أكن أبحث عن طريق، بل عن مبرر لفقدي. كنت أدور حول نفسي كما تدور الرياح حول كثبانها بلا نهاية، والصحراء لم تكن خيارًا، بل نداءً، لم يأتِ بصوت بل بصمتٍ مجبولٍ بالرهبة. قالوا لي: لا تمشي وحدك إليها، فإن للصحراء شهية لا تشبع من التائهين، لكنني لم أعد أخاف الجوع ولا العطش ولا حتى الجنون... كنت أخاف فقط أن أبقى كما أنا.

لم أحمل في حقيبتي سوى صورة قديمة لامرأة لم أعد أذكر ملامحها، كنت أظنها أنا، وحفنة أسئلة خشيت أن أطرحها. كنت كمن يفتش عن خلوة في عراء الله، كمن يريد أن يتطهر لا من الخطيئة، بل من الكذب الذي ارتداه عمرًا كاملاً. كل ما فيّ كان يئن؛ قلبي، جلدي، وحتى قدماي اللتان مشتا كثيرًا في طرقٍ لم تكن لي.

في اليوم الأول، شعرت أنني أسير فوق جلد كائن عملاق نائم. كانت رائحة الرمل تشبه رائحة الجسد حين يغتسل من الحب، أما الشمس فكانت كعين إله قديم لا تغمض، تراقبني حتى أعترف. في اليوم الثالث، بدأت الأحلام تصرخ. رأيت طفولتي واقفة عند أطراف ذاكرة ممزقة: أبي الذي صرخت عليه آخر مرة بلا سبب، وأمي التي رحلت قبل أن أسألها إن كانت سامحتني. كنت أظن أنني جئت هربًا، لكن الصحراء علّمتني أن الهارب لا يهرب، بل يدور في دوائر نفسه حتى يسقط.

ذات مساء، رأيته. لم يكن يسير، بل ينساب كما تنساب الحكمة بين السطور. رجل بملامح لا تُقرأ، كأنه خُلق من الريح. قال لي: "من يسكن قلب الصحراء، لا يخرج منها كما دخل." سألته: "هل تعرفني؟" فأجاب دون أن ينظر إليّ: "أنا صورتك في المرآة حين لا تخافين النظر."

قدّم لي قنينة ماء. أمسكت بها، لكنني لم أشرب، راقبت الماء كما لو كنت أرى ارتجاف قلبي فيه، ثم سكبتُه على الرمل. راقبت كيف شربته الأرض كما تشرب الخطيئة النور، وعندها أدركت أن العطش ليس لما يُشرب، بل لما لا يُقال.

وجدت خيمة يتيمة، كأنها نُصبت لتنتظرني، وأمامها شيخ أعمى يقرأ كتابًا بلا كلمات. قال: "كل من يصل إلى هنا، جاء لأن الألم دلّه." فبكيت، لا لأني صدقته، بل لأني كنت أكذّب على نفسي طيلة حياتي. جلست وحيدة وفتحت دفاتر الأيام التي دفنتها، قرأت رسائل لم أرسلها وأسماء كتبتها على جدران القلب ثم محوتها. كل الذين أحببتهم مروا أمامي، لكنهم كانوا صامتين كما تركوني يوم الرحيل.

في اليوم العاشر، رأيت امرأة تشبهني تمشي بعيدًا. نادتني، لكن صوتها كان صوتي حين كنت بريئة. ركضت نحوها، لكنها تلاشت، وحينها فقط عرفت أنني لم أكن أفتقد أحدًا... كنت أفتقدني.

وجدت طائرًا يحتضر، جناحه مكسور كما كانت روحي. حملته، واحتضنته، وسقيته من دموعي التي حجبتها عن نفسي لسنوات. لحظة واحدة، لكنها كانت كافية لتعيد للروح إنسانيتها. وفي صباح اليوم الحادي عشر، غنيت، لا لأطرب، بل لأعلن أنني ما زلت حيّة رغم كل ما دفنته في صدري. الصحراء صمتت لتصغي، وكأنها لأول مرة تعترف بي كابنة لها.

حين قررت العودة، لم أعد كما ذهبت. لم أعد مثقلة بالأسئلة، بل خفيفة كمن تعلّمت كيف تسامح ذاتها. لم أعد أطلب من العالم أن يشفيني، ولا من الناس أن يفهموني. الصحراء علّمتني أن البداية الحقيقية لا تحتاج إلى أحد، بل إلى أن ننتهي من كذبنا الأول.

عند أطراف الرمل، وقفت امرأة لم أرها من قبل، وقالت: "سيمر العمر، وسيظن الناس أنكِ غبتِ يومًا في الصحراء، لكنهم لن يعلموا أنكِ كنتِ هناك لتجدي ما فقدتِه منذ الميلاد: نفسكِ." ابتسمت لها ولم أجب، فالصحراء علّمتني أن أصدق الإجابات... هي الصمت

اجتياح

في صباحٍ غامضٍ لا يشبه أيّ صباح، استيقظ الناس على صمت لم يألفوه.

لم توقظهم زقزقة العصافير، ولا ضجيج الحارات، ولا رائحة الخبز الطازج التي كانت تملأ الأزقة.

كان الصمت كثيفًا، يخنق الجدران ويعري الأرواح.

كأن المدينة كلّها دخلت في غيبوبة جماعية يصعب إيقاظها منها.

لا أحد في المطبخ، لا أحد في الباحات، لا ظلّ لوجوه الأمهات خلف النوافذ.

البيوت مفتوحة، لكن لا أحد يدخل ولا أحد يخرج.

حتى الهواء نفسه بدا مترددًا، خائفًا من التجوّل بين الأزقة في هذا النهار المختلف.

لم يأتِ جندي، ولم تُحلّق طائرة فوق الرؤوس،

ومع ذلك شعر الجميع أن شيئًا رهيبًا قد حدث.

اجتياح...

ليس كما تصفه الكتب أو كما يظهر في نشرات الأخبار،

بل اجتياح داخلي، ناعم، خفي، مباغت، لا يُرى ولا يُدوّن.

وجوه الناس بدت هادئة على نحوٍ مريب، كأنها تعرف، لكنها لا تملك الكلمات.

عيونهم كانت تتفرّس في الفراغ، تبحث عن شيء مفقود، عن سؤالٍ لم يُطرح بعد، عن معنى فقدوه دون أن يلاحظوا متى أو كيف.

في زاوية حديقة مهجورة، جلس رجلٌ كان بالأمس يُحلّ الكلمات المتقاطعة في المقهى،

أما اليوم، فراح يرسم دوائر على التراب بإصبعه المرتجف، ويهمس لنفسه:

"لقد دخلوا من شقوق الذاكرة... لا من الحدود."

لم تُسمع صافرة إنذار، ولم تُكسر نافذة،

لكنّ الأرواح سقطت واحدةً تلو الأخرى، كما تتساقط أوراق الشجر اليابسة في رياحٍ لا تُرى.

كان الاجتياح ناعمًا كالغبار، شفافًا كالخذلان، يتسلّل عبر الأحلام المؤجلة والخوف المتراكم، ويأخذ من الناس الرغبة، الأمل، حتى القدرة على الشك.

ارتدت النساء السواد دون أن يعرفن مَن مات.

الأطفال رسموا بيوتًا بلا أبواب، بلا نوافذ، بلا أهل.

الرجال جلسوا في مقاهٍ مغلقة يتأملون فناجين قهوة باردة،

كأنهم ينتظرون أحدًا لن يأتي أبدًا.

وفي أرشيف قديم، وُجدت ورقة صفراء كُتبت بخطٍ شاحب:

“حين يجتاحوننا، لا يبحثون عن الأرض،

بل عن موضع النبض.

يجتاحوننا من الداخل،

حيث لا نملك مقاومة،

ولا نشيدًا وطنيًا واحدًا.”

في اليوم التالي، عاد كل شيء إلى مكانه.

امتلأت الشوارع، وعادت الضحكات،

بدأ الراديو يبث أغنية قديمة،

عاد الناس إلى وظائفهم، ولعب الأطفال في الحيّ كما لو أن شيئًا لم يكن.

لكن العيون لم تعد كما كانت.

في نظراتهم انكسر شيء لا يُرمم.

كأن أرواحهم ارتدت إلى داخلها ونسيت كيف تعود إلى الضوء.

سأل أحدهم:

“هل انتهى الاجتياح؟”

فأجابه رجل لم يعد يعرف اسمه:

“الاجتياح الحقيقي لا يبدأ حين يدخل الغزاة،

بل عندما نعتاد على غيابنا.”

ربما كانت تلك مجرد هلوسة جماعية.

وربما لم يكن الحلم إلا تمرينًا على الانقراض القادم.

لكنّ الناس، منذ ذلك اليوم، كلما استيقظوا،

أخذوا يتحسّسون وجوههم،

يتأكدون أنهم ما زالوا هنا،

وأن الاجتياح لم يُكمل مهمته... بعد.

"حين انهارت الطاولة... وانكشفت الوجوه"

كانت الطاولة المستديرة في ذلك المقهى الثقافي العتيق تضجّ بالضحك، بالمجاملات، برائحة القهوة المحترقة، و"الشللية" المُعطرة بعبارات النفاق المغلف. كلّ مساء خميس، يجتمعون هناك. لا شيء يتغير سوى أسماء الكتب التي لا يقرؤونها، والضيوف الذين يختارونهم بعناية، لا بناءً على القيمة، بل على الانتماء... للشلّة.

أنا، لم أكن يومًا من المدعوين.

رغم أنني كتبت، ونُشرت لي مقالات، وطبعت ديوانين على نفقتي الخاصة، لم يُدعني أحد لقراءة حرف.

"موهبتك ليست كافية، عليك أن تُقبّلي الخواتم!"، قالت لي إحداهن، وضحكت.

أدركتُ أن الثقافة أصبحت حرفة تُباع وتُشترى، وأن من لم يكن ضمن الحظيرة، فمصيره النباح خارجها. لكنني لم أنبح. كتبت.

كتبت قصائد غاضبة. قصائد عنهم. عن جوائزهم "المفصّلة"، عن اللجان التي لا تقرأ، عن الكتب التي تفوز لأنها كُتبت بأسماء مُكرّسة لا لأنها تستحق.

ثم حدث ما لم يتوقعه أحد.

انفجار. لا، ليس صوت قنبلة. بل صوتُ تسجيل مسرّب.

كان أحدهم قد سجّل جلسة داخلية بين كبار "الشلّة"، يضحكون فيها على كاتبة شابة فازت بجائزة كانت "مقررة سلفًا"، ويتبادلون السخرية من كاتب آخر "ثقيل الظل لكنه محسوب علينا"، ويخططون لتهميش "من لا يطبّل".

في الليلة ذاتها، انتشر التسجيل كالنار في هشيم الفيسبوك.

تعليقات، مشاركات، عناوين صحفية: "فضيحة أدبية تهزّ الساحة الثقافية".

القراء، الذين طالما ظنّهم النقّاد أغبياء، صرخوا: كفى!

انهارت الطاولة.

أُلغيت الجائزة.

استقال أحدهم.

اختفت أخرى.

والمقهى؟ أصبح مهجورًا.

لكني لم أفرح، بل بكيت.

ليس شماتة، بل وجعًا. لأننا كدّسنا عقودًا من الكلمات على أساسات هشة، ولم ننتبه أن الأدب لا يُبنى بالشِلَل، بل بالصدق.

بعد أشهر، دُعيت لأول مرة لإلقاء قصيدة في نادٍ ثقافي. لم يكن فيه طاولة مستديرة، بل كراسي متفرقة، متساوية. لا أحد في المنتصف، ولا أحد على الهامش.

قرأت قصيدتي: "حين تنهار الطاولة... تُبعث الكتابة من جديد."

حين انتهيت، صفقوا. لا لأنني من الشلة، بل لأن القصيدة مست قلبًا ما.

وهذا يكفيني.

الكاتب الكبير... الذي لا يكتب!

في أمسية ثقافية "رفيعة المستوى"، أقيمت برعاية جهة رسمية تُحب الشعر كما تُحب التقارير الأسبوعية، اجتمع أهل الثقافة والفكر والفن في قاعة فخمة تشبه المتاحف، حيث تُعرض الكتب لا لتُقرأ، بل لتُلتقط بجانبها الصور.

على المنصّة، وقف "الكاتب الكبير"، أو كما يُحب أن يُنادى: الأستاذ الدكتور المفكر الشامل، حامل جائزة "أكثر من تحدّث عن الكتابة دون أن يكتب".

تنحنح. صفّق له الجمهور قبل أن ينطق، فهؤلاء يعرفون البروتوكول جيدًا.

قال بصوته العميق الذي يشبه فاصلًا إعلانيًا عن منتج أدبي منتهي الصلاحية:

– "أنا لم أعد أكتب منذ أعوام... لأن النصوص أصبحت أصغر من رؤيتي!"

ضجّت القاعة بالتصفيق، وانطلقت "همهمات الإعجاب" من زوايا القاعة كأنها صدى لصوت الحكمة، رغم أن بعض الحاضرين لم يفهموا هل هو يعلن موت الإبداع أم ولادته من العدم، لكن لا أحد تجرأ أن يسأل، فالسؤال – في هذه الأوساط – يعتبر خيانة ثقافية.

على الطرف الآخر من القاعة، كانت شاعرة تصف نفسها بـ"صوت الأنثى الحرة في زمن الذكورة النقدية"، تُمسك دفترًا مخمليًا عليه صورتها مع اقتباس من قصيدتها الأخيرة:

"نحنُ النسوةُ لا نُغلب، إلا حين نُحبُّ رجالًا يكتبون."

همست لجارتها:

– "والله ما فهمت عليه، بس عظيم! جدًا عظيم!"

أما الناقد، فكان يقلب كتابه المطبوع ذاتيًا، متظاهرًا أنه يبحث عن شيء، رغم أنه يحفظ فهرسه عن ظهر قلب:

"في نقد النقد للنص ما بعد الاستعارة"، و"التأويل الظاهراتي للغياب المجازي"... مصطلحات تصلح كوسائد من ريش الفلسفة، لكنها لا تُشبع قارئًا جائعًا للصدق.

في الزاوية الخلفية، جلس شاب هادئ، لم يُدعَ للمنصّة، ولم يعرفه أحد، يحمل دفتراً عادياً وبعض الأحلام التي لم تتلوث بعد.

كتب شيئًا في صمت، ثم خرج دون أن يصفق له أحد، ولا أحد التفت إليه...

لكنه الوحيد الذي كتب شيئًا حقيقيًا في تلك الليلة.

أما الكاتب الكبير، فقد غادر القاعة محاطًا بالكاميرات والابتسامات، وهو يردد:

– "حين أتكلم، تصمت النصوص. وحين أكتب... ينتهي الزمن."

وفي صباح اليوم التالي، امتلأت مواقع التواصل بصور من الأمسية، مرفقة بتعليقات مثل:

"ليلة من ليالي المجد الثقافي!"

"الثقافة بخير... ما دام الكبار حاضرون."

ولم ينتبه أحد أن الكهرباء كانت مقطوعة عن غزّة،

وأن من كتب حقًا لم يُمنح حتى مقعدًا.

قناع النجاة

لم تكن تعرف تمامًا متى بدأت تفقد ذاتها، لكنها تذكر جيدًا متى قررت أن تهرب منها.

كان ذلك في مساء خريفي، حين جلست وحيدة في الغرفة المعتمة، تنظر إلى شاشة الحاسوب كأنها مرآتها الوحيدة التي لا تكذب.

كل ما فيها كان يؤلم: جسدها المتعب، صوتها المرتجف، وذكرياتها التي تنبض كأنها كدمات لم تبرأ.

لم تكن الصدفة من قادتها إلى غرف الدردشة،

بل ذلك الثقب الأسود داخل روحها.

قررت أن تدخل باسم مستعار، لكن اسمًا أنثويًا لم يمنحها الحماية الكافية،

فحذفته، واختارت اسم رجل.

ومنذ تلك اللحظة، بدأت تعيش حياة لا تشبهها، لكنها تشبه حلمها.

كانت تكتب بثقة، تتحدث بحرية، تضحك دون أن تُحاسب، وتحزن دون أن يُقال لها: "كفاكِ دراما!"

كل مساء، كانت تدخل إلى ذلك العالم الرقمي، وتلتقي بها.

امرأة لا تعرف عنها سوى كلماتها... لكنها كانت كل شيء: أختًا، أمًا، وابنة.

تعلّقت بها.

كانت تشعر بالأمان معها، بحرارة لم تعرفها منذ زمن.

كانت على وشك أن تعترف...

أن تقول لها:

"أنا لست هو. أنا هي. أنا امرأة، لكنني جُرحت حتى تهشمت، فهربت إلى قناع رجل كي أنجو."

لكنها سكتت.

مرّة بعد مرّة، أجّلت الحقيقة خوفًا من أن تخسرها.

كانت تكتب لها:

"أحبكِ كأنني أتنفّسك."

لكنها كانت تعني:

"أنقذتِني دون أن تدري."

وفي مساء مرتبك، تاهت أصابعها،

ضغطت على زرّ الفيديو عن طريق الخطأ.

وظهرت...

بشعرها الكثيف، بعينيها المبللتين، بصوتها الخائف:

"أنا... آسفة. لم أقصد أن أخدعكِ.

لكني كنت أختبئ. كنت أحتمي بكِ."

مرّ صمت ثقيل.

ثم قالت الأخرى، بصوت يشبه الحنان:

"لم تخدعيني... أنتِ فقط كنتِ تحاولين البقاء."

أغلقت الحاسوب تلك الليلة،

لكنها لم تبكِ.

للمرة الأولى منذ سنوات... لم تبكِ.

نظرت في المرآة.

رأت وجهها الحقيقي، خاليًا من الأقنعة.

ولأول مرة شعرت أنها لا تحتاج أن تكون "هو"

كي تُحب،

كي تُفهم،

كي تكون... هي.

الخبيث

لم يكن "الخبيث" يومًا مجرد كلمة عابرة تُلقى على لسان الأطباء أو تهمس بها النساء في مجالسهنّ. كان شبحًا يتوارى في الزوايا، يطلّ من بين حروف الأخبار، ويلتصق بالذاكرة الجماعية كما يلتصق الغبار بكتب قديمة لم تُفتح منذ زمن.

في بيت سامر، الرجل الشاب الذي لم يتجاوز الخامسة والثلاثين، تحوّل "الخبيث" من حكاية تُروى عن الآخرين إلى واقع يطرق الأبواب بعناد. البداية بدت عادية: صداع متكرر، إرهاق غير مبرر، كدمات تظهر بلا سبب واضح. الأطباء قالوا في الزيارة الأولى: "إنها أنيميا بسيطة." وفي الثانية: "فلنُجْرِ بعض الفحوصات للاطمئنان." وفي الثالثة، ألقى الطبيب الكلمة كمن يُلقي حجرًا في بئر صامت: "سرطان."

البيت يتغير

منذ تلك اللحظة تبدّلت ملامح البيت. الجدران التي كانت تضحك بألوانها تحولت رمادية، والطاولة التي كانت تحتضن وجبات العائلة اليومية أصبحت مسرحًا للأدوية والفواتير والتقارير الطبية. على رف صغير وُضعت علبة معدنية للأدوية، وعلى الجدار خُطّت جداول مواعيد العلاج. لم يعد الزمن في ذلك البيت يُقاس بالشهور أو بالأيام، بل بعدد الجلسات: الجلسة الأولى، الثانية، الثالثة...

لينا، زوجته، كانت امرأة تمسك بالبيت بأصابعها المرتعشة، ترفض أن تسقط ابتسامتها أمام ابنتهما ميرا. أميمة، الأم العجوز، لم تتوقف عن الدعاء وهي تضع يدها على صدره حين ينام: "يا مقلّب القلوب، ثبّت قلبه." أما الصغيرة ميرا، فلم تفهم الكثير من تفاصيل الطب، لكنها رسمت على دفترها لافتة كتبت عليها: "الخوف ممنوع الدخول."

جناح الأورام

في المستشفى كان جناح الأورام عالَمًا قائمًا بذاته. ردهات طويلة نظيفة حتى اللمعان، روائح مطهّرات تختلط برائحة القهوة الباهتة، وصفير أجهزة يعلن الحياة أو يهددها. في ذلك المكان يلتقي الكبار والصغار بلا فروقات تُذكر، إذ يمنحهم المرض هوية مشتركة: "نحن أبناء الصبر."

جلس سامر على الكرسي الأبيض في جلسته الأولى، الكانيولا في ذراعه والدواء يتساقط قطرة بعد قطرة، كساعة بلا عقارب. قال الطبيب: "ستتعب، سيسقط شعرك، سيتغير طعم الأشياء، لكننا سنقاتل." فأجاب سامر بابتسامة: "سنقاتل."

كان يجد عزاءً غريبًا في مزاحه مع الممرضة الشابة نادين: "كم بقي لي من العمر في هذا الكيس؟" فترد مبتسمة: "أكثر مما تتخيل." كان في جناح الأورام جرس صغير معلّق على الحائط، يقرعه المرضى الذين انتصروا. نظر إليه سامر في المرة الأولى كما ينظر المسافر إلى قمر بعيد: ليس لي الآن، لكنه ينتظرني.

العائلة تتأقلم

في البيت رتبت لينا الأيام حول غياباته. طبخت الحساء كما أوصتها أمها، وخبأت دموعها في المطبخ كي لا يراها. أميمة داومت على صلواتها، وميرا صارت تحصي معه القطرات على خريطتها الصغيرة، كأنها تعرف أن كل قطرة دواء نقطة نحو الجرس.

مرت الشهور، والجسد تعب، لكن الروح صارت أكثر عنادًا. في الجلسة الرابعة، قال سامر: "أشعر أني أكتب كتابًا جديدًا. كل جلسة فصل، وعندما أصل للنهاية، سأكتب كلمة: انتصرت."

البشرى

ثم جاء اليوم المنتظر. دخل الطبيب حاملاً تقريرًا جديدًا. عيناه لمعتا قبل أن يستعيد جديته: "الاستجابة ممتازة. الأورام تراجعت. قد نسمي هذا هدأة." الكلمة كانت أجنبية، لكنها مفهومة: راحة.

ضحكت لينا لأول مرة منذ شهور. دمعت عينا أميمة كمن رفعوا عنها صخرة. أما ميرا فركضت في الجناح، وأخفت ضحكتها بيدها احترامًا لبقية المرضى. الطبيب أضاف: "لا نركن. سنكمل العلاج حتى النهاية. نريد أن نتأكد أن الخبيث لن يعود." وافق سامر وقال: "سأقرع الجرس مرتين، واحدة لي وواحدة لكل من لم يصل بعد."

اليوم الأخير

جاء اليوم الأخير. دخل سامر الجناح بابتسامة وكتاب لم يُكمل قراءته، وقال: "اليوم نقرع الجرس ونبدأ كتابًا جديدًا." جلست لينا بجانبه، وأميمة على الطرف الآخر، بينما انشغلت ميرا برسم سلحفاة تحمل جرسًا على ظهرها.

بدأ التسريب. بعد دقائق قال: "طعم غريب في فمي." ردت نادين: "هذا طبيعي." بعد عشر دقائق قال: "صدري يضيق." قالت: "خذ نفسًا عميقًا." بعد عشرين دقيقة أشارت أميمة: "وجهه أصفر." فارتبكت نادين وضغطت على زر الاستدعاء. جاء الأطباء، حاولوا الإسعاف، لكن الساعة كانت أسرع منهم.

في غضون ساعة، خط القلب استوى على الشاشة خطًا مستقيمًا. رحل سامر.

الورقة المطوية

في اليوم التالي، وبينما كانت لينا ترتب الأدوية في الصندوق المعدني، عثرت على ورقة مطوية. فتحتها بعينين مرتجفتين:

"لا دليل على نشاط سرطاني. توصية: تقليل الجرعات أو إيقاف العلاج."

سقطت الورقة من يدها. لم يمت سامر من "الخبيث". لقد هزم السرطان. مات من جرعة دواء لم يكن يحتاجها، من خطأ بشري تسلل في لحظة ازدحام.

الجرس المعلّق

بقي الجرس في جناح الأورام معلّقًا ينتظر سامر. لكن بعد أسابيع، عادت لينا مع أميمة وميرا. وقفت الصغيرة أمام الجرس، ورفعت يدها وقرعته مرة. ثم قرعته لينا مرة ثانية، وأميمة ثالثة. ثلاث قرعات هزّت الجناح كله.

سأل أحد المرضى: "لمن هذا الجرس؟" أجابت ميرا: "للذين لا يريدون أن يختبئ الخبيث. ليس الذي في الجسد... بل الذي في الظلال."

الحقيقة المرة

انتشرت القصة. أصدر المستشفى بيانًا مقتضبًا: "المريض توفي نتيجة مضاعفات نادرة." لكن الحقيقة لم تمت. ممرضة شابة اتصلت بلينا سرًا: "كان هناك خطأ. الكيس الذي عُلّق له لم يكن دواءه."

هكذا بدأت رحلة العائلة الجديدة: ليست مع المرض، بل مع البحث عن العدالة. رفعوا دعوى، وواجهوا جدران الصمت. المحامون تحدثوا عن "نسبة المخاطر"، لكن محامي العائلة قال: "المريض وافق على العلاج، لا على الخطأ."

في المحكمة عُرض تسجيل لجهاز أصدر تنبيهًا خافتًا لم يسمعه أحد في الزحام. صفارة صغيرة كانت كفيلة بإنقاذ حياة.

ما بعد الموت

لم تعد الحكاية تخص سامر وحده. صارت تخص كل من جلس على كرسي أبيض، وكل عائلة رتبت الأدوية في صندوق معدني. صارت تخص كل جرس لم يُقرع.

البيت عاد صامتًا. الجاكيت معلق، الكوب نصف ممتلئ، دفتر ميرا مفتوح على صفحة كتبت فيها: "في اليوم الذي لم يقرع فيه أبي الجرس." لكن الفقد تحوّل إلى وعد.

لينا صارت تكتب، وأميمة لم تتوقف عن الدعاء، وميرا ربتت سلحفاة بلاستيكية وقالت: "سنكمل الخريطة."

في أحد الأيام، عادت العائلة إلى الجناح لتزور المرضى. وقفوا أمام الجرس، وقرعوه من جديد. لم يكن صوتًا معدنيًا عاديًا. كان صرخة ضد الصمت.

انتشر الفيديو القصير لثلاث قرعات في جناح أبيض. وكتب أحدهم تعليقًا بسيطًا: "هذا الجرس لنا جميعًا."

الخبيث إذن لم يكن السرطان وحده. لقد كان الإهمال، الصمت، والظلال التي تتستر على الأخطاء. أما سامر فقد انتصر بالفعل: هزم السرطان، وترك وصيةً أخيرة تقول إن الحقيقة لا تموت إذا قُرع الجرس في الوقت المناسب.